

الابعاد التاريخية

لأزمة التطور الحضاري العربي

ابعاد الواقع في الوانه وخطوطه ومحركاته ، تعني رؤية مسطحة ذات بعدين لواقع موضوعي ذي ابعاد في المكان والزمان والانسان والحياة لا تكاد تدرك كثرة وتعقيدا ...

ولمنا قبل ان نطلق الشراع للفوضى ملزمون برسم بعض الحدود ونقاط الاحتياط والملاحظات :

١ - فنحن لا نفهم التاريخ في هذا البحث على انه الادب التاريخي وكتابة التاريخ اي كتقنية من تقنيات المعرفة ، ولا ننظر اليه في الوقت نفسه على انه مجموع احداث الماضي الذي انقضى والحروب والعقائد والجمام التي سفحت ولكن ننظر اليه كجذور للواقع العربي القائم وكجزء حي من هذا الواقع . وما نذهب في تحليله - ان ذهبنا - مع الزمن او مع المكان او مع الافكار ، الا كوسيلة لكشف الابعاد العميقة في الحاضر العربي ...

وإذا اختلطت كلمة تاريخ مع كلمة التراث احيانا فانما نعني بالتراث مرسم ذلك التاريخ في الحياة والحصيلة (المادية او الفكرية) المؤثرة منه في مسيرة المجتمع العربي .

٢ - ليس التخلف سمة خاصة بالمجتمع العربي . ثلاثة ارباع شعوب الارض تشاركه ذلك لكن العناصر التاريخية لهذا التخلف قد تكون مختلفة لدى العرب عنها لدى الشعوب النامية الاخرى ومن هنا تأخذ الدراسة لهذه العناصر اهميتها الخاصة لانها تكشف عن الميزات الخاصة للتطور الحضاري العربي بما فيه من ارض موات ومن امكان عطاء . انها عملية نبش في الجذور . كل الجذور . هي رحلة في النعميات والجراح معا من الماضي . ارث التاريخ ليس كله في كفة المساوىء ومن دنيا التخلف . على اننا ملزمون بكشف جانب الجراح منها فقط ، جانب السلب وانقال الرصاص التي تدسك بالمعجلات الى الارض ... وبالرغم من ان التأكيد على ذلك اشبه بدفع ابواب مفتحة على مصارعها الا اننا نضعه بين المعطيات الاولى ونضيف اليه :

٣ - انه ليس ثمة ما يمنع بعدا من ابعاد التخلف التاريخية من ان يتحول بمعاملة جديدة له او بفهم جديد الى بعد حضاري من ابعاد الفد ... ان التخلف يستند الى عناصر مطلقة . الى لعنات ابدية ، متصلة بنقائص ازيلية . وانما هي عوامل شلل ولعنات نسبية دوما في اطار العصر التي توجد فيه ومن خلال الدور المعطي لها في الناس ، وبمستوى المعاناة الانسانية التي تتعرض لها . واذا لم يكن ثمة من عنصر في التاريخ هو عنصر تخلف مطلق او ثابت ، فانا لن ننظر الى العناصر التاريخية في التخلف الا من خلال منظور متكامل للمستقبل ،

لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل ، ودون كبير جدوى ؟ هذا السؤال المصيري النازف كالجرح في ضمير كل عربي ملتزم اذا كان ما يزال يأخذ يوما بعد يوم ابعادا مأسوية متزايدة فلانه قد مضت على ارتطام هذه الامة بالحضارة الحديثة وبمعطياتها والانه سنون بعيدة بعيدة . كتلة الاقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون في مستوى العصر وتكنولوجياه وفيضه الحضاري . معظمها ، على الاقل ، انطلق قبل الصين التي بدأت منذ ربع قرن ، بعضها قبل روسيا التي بدأت منذ سبعين سنة ، وبعض قبل اليابان التي بدأت منذ مائة سنة . ومع ذلك فهذه الامم وصلت . كلها وصلت . بينما لم يصل اي اقليم عربي طبعي الى شيء بعد ... مأسوية السؤال انما تتبع من احتمالات الاجوبة عليه : فهل وصلت الامة حقا مرحلة الشيخوخة فهي الى الادبار والعقم الحضاري ؟ ام اصاعت الطريق ؟ واني الطريق ؟ ام ثمة من الامراض المقعدة في تكوينها العام ما يشل المفاصل ان تسيير السير الذي يقتضيه ايقاع العصر ؟ « تلك هي المسألة » !

وإذا كانت ابعاد التحليل لهذا التخلف تحتمل من السعة والتشعب ما تتساح معه على آفاق الحياة كلها من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ... فان الباحث في هذه الافاق ما ان يحاول تلمس الجذور حتى يجد نفسه فجأة في رحاب التاريخ ... وبالمقابل فان الباحث عن الابعاد التاريخية لهذا التخلف ، ما ان يحاول الاستقصاء والشمول حتى يجد نفسه فجأة بدوره في عدوان مستمر على حقول هذه الابحاث الاخرى التي تتناول تلك الافاق بالدراسة ... ولا مناص من هذا العدوان ما دامت البنى البشرية تسيير عامة في مراحل حياتها في عملية ديالكتيكية الحدود . التنافي والتواصل هما الحدان اللذان يحكمان مع المسيرة . ففي الوقت الذي تفرز فيه مرحلة تاريخية معينة عناصر المرحلة التالية فان هذه المرحلة بدورها تنفي سابقتها وتناقضها ولكنها وهي تنفيها وتنقضها تكون محكومة بها وبحدودها برابطة من البنية تكاد من الحمومية ان تكون نوعا من ارث « البيولوجي » وهكذا فالحاضر العربي ، وهو ركيزة الفد ومنطلقه ، هو بالرغم منه ، وفي جانب الاصاله والهوية من جوانبه ، حصيلة تلك البقايا الحية والرواسب الميتة ، المرة والحلوة على السواء ، التي افرزها ذلك الماضي الطويل الذي تجره الامة العربية وراهها كالقطار الطويل ...

ان اهمية البحث في الابعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي انما تأتي من ان اللاتاريخية في الفكر تعني العمى عن ادراك

الا من خلال المنظور الذي يقابلها للتطور الحضاري . ليس من بعد يمكن ان يعتبر عامل تخلف الا بمقدار ما يعمل ضد عوامل التطور المستقبلية وبمقدار ما يمكن منه على الفد من قيود حجرية .

٤ - وتتفاوت اثر هذه الابعاد التاريخية التفاوت الواسع في الزمان وفي المكان . فبعضها قديم قدم هذه الامة لارتباطه بقدرها الجغرافي او التكويني ، وبعض حديث طارئ من صنع بعض الصور والاحداث المتأخرة وبعضها يظهر فترة ثم يغب او يختلف حدة وضعفا حسب الاجيال والمعطيات الحياتية الاخرى ... كما انها تتفاوت حسب اقاليم الوطن العربي الاوسع وظروف تاريخها واتصالها بالحضارات الاخرى ، فمرتسمات التخلف التاريخي في اقليم هي غيرها في الاقليم الاخر والوان بعضها في هذه البطاح غيرها في تلك الجبال او الصحاري او الخلط البشرية .

٥ - وعلى المستوى نفسه فان عناصر التخلف ، ان كانت قديمة وتاريخية ومتفاوتة ، فان ذلك لا يعني انها ميتة . ولكن يعني انها تعمل بشكل قديم . لا يعني انها غير حية الحياة الواسعة ولكن يعني ان هذه الحياة تجري فيها ضمن القواقع المتكلسة والارضية المتحجرة والمعطيات الورثة . وانها تدافع عن نفسها ، بل وتهاجم احيانا ، من وراء قشرة سميكة اشبه بأسوار القلاع الوسيطة ، حجارتها الجهل والتقليد والامثال والاعتقاد الاجتماعي والقوالب الفكرية الجاهزة وظلال التقديس وموروث الاحترام للقيم ...

٦ - ونحن لا نكر ابدا ولا يجوز ان ننسى ان العديد من هذه العناصر التاريخية في التخلف قد اخذ يتحول تحت ضربات الحياة الحديثة وايقاعها الحار . بعضها يموت مرغما على هون وبعض يقف على بقايا الارض القديمة التي ما تنفك تؤنكل باستمرار وبعض يتطور بدوره ايضا . يحاول ان يأخذ من العصر ويعطيه . ولكن هذا الاخذ والعطاء يسيران ببطء لا يتفق مع تواتر العصر نفسه وسرعته ومنطقه ... وتضاف عقابيل التلازم القاصر الى عناصر التخلف نفسها لتزيدها تعقيدا في الفكر والاجتماع والسياسة والدين على السواء ...

٧ - ثم ان عناصر التخلف في التاريخ اعقد بكثير من ان تكون ذات بعد واحد . انها مشتبكة الحدود ، متعددة الصور ... خطوطها تتقاطع . تتوج . تلهث . تصطدم . تذهب في كل اتجاه وفي لا اتجاه . لانها نتيجة عوامل بال عشرات وظروف تاريخية شتى في فترات زمنية متعددة واماكن ليست اقل شتانا . وادراكها على هذا الاساس يكشف مدى المجازفة في محاولات التيسيط والتعميم التي قد نلجأ اليها مكرهين بغبة الاقتصاد على التيارات العامة .

٨ - وعلى المستوى نفسه اخيرا يظهر مدى المجازفة عند الوقوع في « التجزئية » . ان تجزئة تلك العناصر التخلفية ، وهي مجرد عملية منهجية ، يجب ان لا تحجب عنا انها في واقعها الاجتماعي - التاريخي وحدة . انها كل . وانها كيان واحد حي متفاعل . تشكل اجزائه وحدة تاريخية التكوين ان تخلفت عناصرها عن عصور شتى فقد تعانقت هذه العناصر في تفاعلات اجتماعية - فكرية طويلة لينسجم بعضها مع بعض ويعمل بعضها من خلال بعض ...

ولعلنا بعد هذه الملاحظات نستطيع للممة الابعاد التاريخية في التخلف العربي في الملاح التالفة التي لا نعتبرها على اي حال اكثر من محاولة اولية ...

ولعل الملاحظة الاولى يجب ان تتعلق بعلاقات الانسان العربي بازمان . واذا كان صعبا ملاحقة هذه العلاقات من خلال الفلسفة والايديولوجيات الفكرية ، فلعل الاسهل والاقرب لموضوعنا ان ندرسها من خلال دراسة شان « التاريخ » نفسه ، ودوره في الايديولوجية العربية المعاصرة ، او في تكوين ما نسميه بالثقافة القومية والشخصية العربية والتاهيل للفد . ان ارتباط العرب بهذا الذي يسمونه تارة

بالماضي وتارة بالتاريخ وثالثة بالتراث او السلف ليس كارتباط اي امة اخرى به ... وان دراسة الابعاد التاريخية للتخلف العربي لتأخذ معنى خاصا ، واساسيا ومصيريا من خلال هذا المنظور لقيمة ودور التاريخ في كيان العرب وفي ايديولوجياتهم المعاصرة .

ان بنى المجتمع العربي - ولعل لحضارته الزراعية اثرها في ذلك - هي في مجموعها بنى تاريخية التكوين ، تاريخية حتى النخاع الشوكي ، تاريخية بامتياز وبعمق مع كل ما يحمل التاريخ من جلال واهتراء وغبار خائق . اننا لا نعيش زمنين معا : الحاضر والماضي فقط ، ولكننا نعيش في الواقع ايضا ازمة شتى من هذا الماضي نفسه . واذا كان التاريخ والتراث والماضي والسلف ... وما يتصل بهذا وذاك منها ذات ضغط خاص على الشخصية العربية وبالتالي في الفكر الايديولوجي العربي المعاصر فلانها تحتل في التكوين الثقافي القومي مكانا خاصا ندر ان عرفته شعوب اخرى ... مكانا ليس بالنادر ان يصل في بعض حدوده ، عالم التقديس والناطق الحرام

ان الحضارة العربية (والتي كان الاسلام اروع اطوارها واكمل تلك الاطوار) تختلف عن الحضارة الغربية في مفهومها للزمن ومن ثم في مفهومها للسيرورة التاريخية . وانها (وهي في هذا تشبه حضارات الشرق في اليابان والصين والهند) نتاج مجتمعات قومية مكتشفة العلاقة باقدم عصور التاريخ (١). وقد اعتادت هذه المجتمعات ان تحيا مع تاريخها دوما . ان تحيا حياة اجتماعية شديدة التماسك مع الماضي ، تركيبية البنية ، ووحوية الزمان . يندمج فيها الماضي بالحاضر كل الانماج ، وتبتلع ، ضمن معركة الاستمرار المادي ، وجدلية الوجود التاريخي ، كل التناقضات التي تخلفها العصور المتتالية . انها ترفض تفقيت الزمن الى وحدات كمية او النظر اليه كامتداد بعيد هو بالنسبة اليها حضور مستمر . الصيرورة التاريخية بالنسبة الى العرب عملية مركبة جدلية اذا امتدت عبر الاجيال فاللاحق فيها جزء من السابق منتم له ... واذا ظهر الاسلام مثلا في القرن السابع فاعلن لاقناع العرب انه « ملة ابيكم ابراهيم » ووصل الناس بهذا الشكل سواء بالنسب البيولوجي او بالرباط الروحي بما قبل خمسة وعشرين قرنا منهم واذا كرر مرات انه جاء « مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل » (٢) ثم اذا حملت راية السنة والامامة في هذه الامة ، كمنطلقات للايمان واذا ظهر فيها ما يزيد على عشرة آلاف حافظ معروف واربعة الاف مؤرخ خلال عشرة قرون وما يزيد على تسعة الاف كتاب في التاريخ وهو ما لم تنتج امة اخرى من قبل ابدا ، فان لذلك كله دون شك معناه العميد في التكوين والنسج الفكرية وفي اقامة التركيب الوحدوي الفكري للحضارة العربية .

ولم يكن غربيا ، غي النهضة العربية منذ اواخر القرن الماضي ، ان ينطلق العرب في البحث عن « الانا » الضائعة الى التاريخ . ان « الاصاله » رغم معانيها العميقة المتصلة بالابتكار والخلق الجديد والارض التي لم يمسها بشر من قبل انما ترتبط عند العربي بالتاريخ والتراثية خاصة . الجانب التراثي من الذات العربية يكاد يطغى احيانا كثيرة ، وفي كثير من اللحظات على الجانب الحي ، الحاضر ، الدارج على الارض ...

واذا كسان التاريخ (او التراث) يتحول الى قضية والى قطب اهتمام خاص في الازمات الكبرى وفي فترات التحدي والحاجة الى الاتصال العميق بالذات ، فانه في المجتمعات التاريخية الصيفة التكوين ، وذات العلاقة الخاصة بالفكر التاريخي ، يأخذ اوسع ابعاده . ولقد راينا بالنسبة الى العرب تيارا من الاندفاع وراء

(١) عبر الاستاذ انور عبد الملك عن جانب من هذه الفكرة في حديثه مع مجلة (الثقافة العربية - نيسان ١٩٧٣) .
(٢) تكرر ذكر ذلك في القرآن ثلاث عشرة مرة .

التاريخ العربي يتوازي مع حركة النهضة العربية ما بين اواخر القرن الماضي والعقود الاربعة الاولى من هذا القرن . وقد اخذ هذا الارتفاع تارة الشكل الديني لدى الجموع المتدينة التي تريد احياء عصور بعينها ورجال معينين ضمن اطار معين واخذ تارة اخرى الشكل الرومانسي العاطفي او الشكل التوفيقي لدى التيارات القومية التي تنظر الى التراث من خلال البلور الملون والفضائية او تحاول ان توفق ما بين قيمه والمصر ... ولو بالرغم منه . كما اخذ اخيرا شكل الرفض الكامل لدى « المتفريين » فكل هذا التراث عندهم يجب ان يلقى الى النار (1) ... انه مصاد للثورة . مصاد للفهم والتكنولوجيا اليوم ومصاد للهد ... ولكن هذا لا يمنع انه بالنسبة اليهم يشكل قضية من قضايا الصدام مع الواقع ...

وقد دخل العرب منذ 1948 عصر الهزائم (2) التي لم تقتصر في الواقع على المستوى العسكري والسياسي ولكنها اخذت ايضا ابعادا حضارية ونفسية تجلت في الاعتراف « بالتخلف » التقني والثوري والتنظيمي والاجتماعي والعلمي وفي تلك القناعات المأسوسية التي جلدنا بها انفسنا جلدا . واذا كان عصر الهزائم هذا يقابل من قبل الجماعة العربية بالرفض وبما يمكن ان نسميه بحركة النهضة الثانية التي عبرت عن نفسها بالثورات ومشاريع التنمية والتوسع التعليمي والاتجاهات الاشتراكية ... فقد رافق هذه الحركة بدورها ردة موازية الى التراث والى تحديد الموقف العربي منه ...

وهكذا عاد التراث في الصراع الحالي القائم بين الابدولوجيات في الوطن العربي كله ليحتل مكانه الواضح في المستويات الاشكالية الاولى ...

على انه من المؤسف ان النظرة العربية للتاريخ ما تزال نظرة سكونية رجعية الاتجاه ... فنحن لا ننظر اليه على انه نقاط انطلاق ولكن حدود انتهاء . ولا على انه نسخ فقط ولكن على انه جلود جاهزة للتعلق والارجحة . ولا ننظر اليه على انه كان يحيل الف امكان ولكن على انه ذو بعد احادي هو الشكل الذي تحقق منه ... التاريخ عندنا ، رغم زمنيته المتطورة الطويلة لا يعترف بالزمان لانه يتراكم كله في لحظة وفي مستوى مسطح واحد ... انه عندنا حتى في صورته المستقبلية محاولة لاسقاط الماضي كاملا على المستقبل ، لا محاولة التجاوز الكامل له . ومن هنا تتحدد مجموعة من الديول والنتائج ...

من هنا مثلا كان التاريخ قارب نجاة للكثيرين . مهربا من المواقع المسكين او كان غربة عن العصر بدل ان يكون اندماجا متزايدا فيه .

ومن هنا ايضا تحل الاستمرارية التاريخية محل الاصاله او توحدان في مفاهيمنا الابدولوجية . يحل الامتداد الوحيد الاتجاه محل الانطلاق المتفجر مع كل الافاق . وتلتوي « الاصاله » لتصبح تقليدا وعودة ذليلة الى الارض الاولى كما تعود الاشجار الاستوائية لتجعل من اغصانها جذورا بدلا من ان تصبح فروعا للزهر والشمر ... « افمن يمشي مكبا على وجه اهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم » ؟

(1) ليس هذا التوزيع سوى محاولة لتسييط المواقف المختلفة من التراث . والواقع انها مواقف متداخلة كل التداخل واي ثمة بين المتدينين من يحاول الموقف التوفيقي او الموقف الاعتدالي عن بعض القضايا (الرق والحجاب) وان بين القوميين من يقف الموقف الرفضى ... الخ .

(2) لا نقصد بها فقط الهزائم العسكرية امام الصهيونية في اسرائيل ولكن ايضا الهزائم امام الغرب الاميرالي الذي يسحقنا دون انقطاع بتفوقه التكنولوجي ونتاجه الاستهلاكي واستثماراته للثروة العربية حتى البشرية منها .

ومن هنا ايضا وايضا تقف مشكلة « التراث » عند العرب ، في مركز مشاكل الجدل . كل الطرق تؤدي الى « روما التراث » عند بحث الثورات ، او التقدم والتخلف او الابدولوجيات او التخطيط ودنيا الهد . تقف كفاطمي الطرق على مفترق الطرق ... لتقسيم الناس الى يمين ويسار وتقدميين ورجعيين وتقليديين وعصريين ... ولتسلم السيوف ونزرع الجهود في الصحراء ... واذا لم تجد هذه المشكلة حلا نهائيا بعد ، اذا لم يتفق الفراء بعد على موقف شبه واحد منها فلانها ليست في الاصل « بمشكلة » ولا من المستوى الاشكالي ولكنها جزء من الهوية العربية ، جانب من الكيان نفسه ، يناقض وينظر اليه من خلال ايدولوجيات معينة فترمي عليه المعاني الدينية تارة او القومية تارة او يجري اسقاطه هو نفسه على المستقبل بهذه المعاني ، تارة ثالثة ... بينما الوضع الطبيعي ، من خلال معطيات الحضارة العربية ، ان تستوعب المتناقضات . ان تزاوم الروح العربية بين معطيات الفكر الحديث والعلم والتكنولوجيا وبين الحفاظ على اخص ما في التراث ضمن التركيب الوجداني القومي او التاريخي ، قد لا يكون منطق الفكر الغربي (وهو منطق ثنائي في جوهره ، يقوم على التضاد المطلق بين الوضع ونقيضه) قابلا لمثل هذه العملية الاستيعابية الصعبة التي تقوم على منطق آخر هو المنطق الجدلي التركيبي الذي يصل من الوضع ونقيضه الى نقيض النقيض والى معادلة تركيبية جديدة . ولكن تجربة اليابان ثم تجربة الصين في نورتها الثقافية الاخيرة قد توحي عند الدراسة بالكثير . (1)

ومن هنا ايضا وايضا يستمر في العقلية العربية ذلك الجناح الفيزي الممدود . ويحل (ما وراء الطبيعة) الميتافيزيك في نواح عديدة مكان الطبيعة (الفيزيك) ولا تؤخذ وتنتشر من الدين الا القيم الاستسلامية . وشعارات الطاعة والقناعة والفناء وعجز الانسان وسيطرة القدر دون القيم الايجابية الديناميكية كهداىء العمل والمسؤولية والحرية والتعاون والعدل والتفكير في مظاهر الطبيعة وطلب العلم ... النظرة الى التاريخ من الزاوية السلبية السكونية هي التي تمنع هذه القيم من اخذ كافة ابعادها في حركية المجتمع العربي ...

ومن هنا الى كل اولئك كانت تلك الانضمامية التي تعيش بين عصر نصطدم كل لحظة بحدوده وفكره وآلته وبين « تاريخ » ترتبط به في الغالب بشكل رومانسي لمقابلة عقد النقص ، ونريده على ان يلبس ثياب هذا الواقع سواء كانت فضفاضة ، ام ضيقة ! ان ما يعطي تلك الانضمامية حدودها المأسوية هي اننا في الوقت الذي نفتح فيه بفكرنا التاريخي المسكوني ، الرجعي الاحادي نواجه بالرغم منا حضارة اخرى ساحقة القوة تنظر الى التاريخ نظرة مختلفة حتى في الجنود تقوم على ايجابية الحدث التاريخي وعلى تغييره المستمر ومسؤولية الانسان المباشرة فيه ...

وننتقل بعد هذا من مستوى الفكر التاريخي وعلاقة الانسان العربي بالزمان الى مستوى الحياة العربية نفسها لنجد - ضمن اطار الملاحظات التي فرطت في مطلع البحث - ان « الاستمرار الاجتماعي » الذي تعيشه الشعوب العربية انما تحكمه عناصر عديدة تشكل في مجموعها التركيب العربي القائم ... وان لامتدادات التاريخ في هذه العناصر المكان الواسع ان لم يكن الاول . واذا تركنا جانبا اطار البيئة

(1) لسنا هنا في صدد بحث مشكلة التراث والدين والتاريخ وامكان او تعذر اعتبارها ركائز للمستقبل ولكنها خاطرة عابرة اقتضاهها ايضاح الفكرة . ولعلنا نصيف اننا لا نقصد بالحفاظ على التراث: السلفية والرجعية ، ولكن نقصد ما نستطيع تسميته بالتراثية التي يقترب معناها كل الاقتراب عندنا من مفهوم الاصاله والارتكاز العميق في الارض لتمتد الفروع بعينة في السماء .

الطبيعية وآثارها في الانسان العربي ، عبر الايكولوجيا والجيوبوليتيك ، استطننا ان نقت من العناصر الاساسية الباقية عند اربعة جوانب : -
ا - طرق الانتاج المادي : كيفية ونوعية العمل الاقتصادي وماذا يحمل من نقل التاريخ .

ب - تكوين نظام السلطة : تاريخية التكوين السياسي القائم ونوع العلاقات بينه وبين الشعب .

ج - طبيعة العلاقات الاجتماعية : اسس التكوين الاجتماعي . الجنس والمرأة . الولاءات العائلية والعشائرية والطائفية . القيم الخلقية .

د - قيم الفكر التراثية (الايديولوجية الفكرية . اللغة والتعبير).

وليس التجزئة التي اصطنعناها في تقسيم هذه الجوانب سوى تكتيك دراسي ، فانها سواء في تطور التاريخ او فيما انتهت اليه من تكوين الواقع العربي القائم انما تشكل كلا ، تشكل وحدة متكاملة . تتمم المفاهيم الاجتماعية والدينية فيها المفاهيم السياسية وتغطي الافكار والاهوام البؤس الاقتصادي كما يترك الطابع الانتاجي الزراعي والبدوي ميسمه الواضح في الحياة السياسية والاجتماعية على السواء ويرر او يفسر الوضع الفكري والسلطة وقوى المجتمع ... وايدولوجيات الناس ...

واذا كانت هذه الجوانب تكاد تجوع نواحي الحياة كافة فلان تراث الماضي المتفلفل في الحياة العربية حتى الصميم والمؤثر فيها حتى الصميم يضطرنا لان نلاحق هذا التراث حيث نتقف ، بل ويضطرنا لان نلاحق منه خاصة الجانب السلبي الموق . على ان المشكلة ها هنا مزدوجة الصعوبة ، وصعوبتها ليست فقط في اختيار الملامح التي نتصور انها هي السبب في التثوير والتخلف ، وقد نتم في هذا الاختيار بالتسفس او الوهم او الجزئية ولكنها في امر اشد خطرا هو اننا لكي نختار الابعاد التاريخية في التخلف لا بد ان نصطنع مسبقا في الفكر ابعادا مستقبلية محددة للتقدم . في الخلفية الفكرية لا بد ان يكون ثمة مفاهيم قياسية معينة يكون التخلف تخلفا بالقياس اليها بعدا او تقصيرا ، او مفارقة ...

على اننا نتفاديا لهذه وتلك سنحاول ان نكون في الجانب الوصفي ، لانه الاقرب الى الموضوعية والى الارض المشتركة ، دون جانب التقييم الذي يفسح ميدانه لكل الاهواء . وسنحاول ان يكون المعيار في حدود روح العصر ومعيطاته وحاجاته لان اساس الازمنة كلها انما تكمن في القرية عن العصر ..

ا - طرق الانتاج المادي وجانب التراث فيه :

برغم انوف المصانع التي تتصاعد بدخانها الى السماء في اكثر من موقع في الوطن العربي وبرغم الثروات الضخمة التي تتدفق ومشاريع التخطيط والانماء والخبراء .. فان الطابع الاوضح فسي المجتمع العربي المعاصر هو طابع الانتاج التقليدي . علائق الانتاج وطرقه ومفاهيمه لم تتغير الا في القليل القليل عما كانت عليه منذ قرون قد تزيد احيانا على العشرين والثلاثين .

لقد ورثنا في مختلف مناطق الوطن العربي حياة انتاجية تقوم اساسا على الزراعة ، وقد لا يكون في هذا كبير امر لولا ان هذه الانتاجية الزراعية حافظت ايضا على الوسائل والطرق التقليدية . واذا كان الفلاح فيها متوحدا مع الارض في الصلة والعلاقة حتى كانه جزء منها ، فان من الطبيعي عند هذا الفلاح ان لا يكون الانتاج له ولكن للاخير مالك الارض (سواء كان شخصا اقطاعيا او حكومة مهيمنة) وان تتحكم في كمية الانتاج لا جهود الانسان ولكن القوى الاخرى القبيصة دوما وفي الاسعار لا قيمة الجهد والعمل ولكن القوى غير المنظورة التي لا حول للمراء امامها ولا قوة ، لانها من عالم المتسلطين ..

وقد كانت هذه الحضارة الزراعية خلال القرون السابقة ، مبررة ومقبولة ضمن الاطار التاريخي لها ومنسجمة مع ما تفرزه وما يتصل بها في الوقت نفسه من تنظيم اقتصادي ، اجتماعي وسياسي ايضا ومن علاقات استقلال ولكن مغطيات الحضارة الحالية ، مع الانفجار السكاني العربي ، يجعل هذا الطريق الانتاجي اليوم مسدودا . انه لا يؤدي فقط الى تزايد الفقر والبؤس الشديد والجوع وسوء التغذية ولكن ايضا الى الصاق الطبقات الفلاحية بالتراب وبطريقة السوائم التي تعيش معها . وهذا يعني عبودية وتعطيل لثني قوى الانتاج في الوطن العربي . انسانية الفلاح هذا الركن الاساسي في الانتاج المادي ، تنتهي امام اشباح الجوع والسيطرة الراكضة وراهه ، وامام علاقات الاستغلال الاضطوبية التي تفل يديه والقديمين .. بلى لقد حاولت قوانين اصلاح الزراعي والثورات ان تغير من ذلك الوضع الانتاجي التقليدي ولكن سوء التطبيق مع بعض الصوامل الاخرى كان يشمل مفعولها الثوري ، ان لم يؤد في معظم الاحيان الى تحول الكثير من اراضي الزراعة العربية ، الى ارض موات ..

واذا كانت البداوة وما يتصل بها من انتاج رعوي من موروثات الماضي العربي ايضا باعتبارها من لوازم الارض العربية التي تها البوادي والصحاري قلبها كله في المشرق الاسيوي واقسامها الجنوبية في افريقيا وباعتبارها تحتجز ١٥ بالمئة تقريبا من الكتلة السكانية العربية وما تزال تحتجزها ، فان المناطق الحضارية من الوطن العربي بحكم جوارها تتصل دوما مع البداوة كانت دوما معرضة للاجتياح البدوي لا من الناحية الديمغرافية فحسب ولكن من ناحية القيم ايضا . اخر مد بدوي اصابها انما كان فسي العهد العثماني خاصة فقد تقلصت الارض الزراعية وسيطر الغزو على اطراف الريف وقامت العصبية القبلية ونسلت حتى الى المدن ليستمسك بها الناس بدل السلطة التي كانت غالبية ..

ومما يتصل بالعقلية البدوية امران ما تزال نلمس اثارهما الواضحة في المجتمع العربي :

اولهما : الرغبة عن العمل والاعتماد على موارد اخرى للحياة : فاذا لم يكن غزو حلبنا الابل او انتقلنا الى مرعى اخر اشر امراعا . ومن الصدف القريبة ان البترول ظهر في المناطق الصحراوية العربية ، كنوع من المرعى الجديد الجاني دون عمل .. وبذل حليب السوق فنحن نحلب اليوم الارض ..

الثاني : امتهان الحرف والنظرة « الدونية » التي ينظر بها العرب الى الاعمال المهنية ، واذا قال الفرزدق القديم في هجائه المرير لصاحبه جرير :

هو القين وابن القين والقين جده

ولا خير في قين تحدر من قين

وما تزال هذه « الانفة من العمل المهني قائمة فسي تكويننا النفسي ، التفضيل في العمل ينصب على الوظيفة الرسمية والاعمال ذات السلطة اولا ، فعلى التجارة واعمال الوساطة وفي اسوأ الاحوال على العمل الزراعي والتعامل مع الارض ... اما الحرف فكانت خلال القرون الاسلامية عامة متروكة لمن لا سلطان لهم من قوة عسكرية او قوة من مال او فضلا من ارض ..

ولم يستطع العصر الحديث ان يخلص العرب من هذا الموقف « البدوي » البدائي بعد . ونحتاج النفسية العربية الى نوع من اعادة التكوين والتاهيل في هذه الناحية لتخلق نوعا من الانجم بينها وبين العصر يقبل لا الحرف والمهن ، كعمل نبيل ، ولكن «الصناعة» والتكنولوجيا كقدر حضاري لا بد منه ..

ولقد كانت للتجارة دوما في العرب سمة النبيل بين الاعمال . الموقع الجغرافي العربي هو الذي جعل من التجارة لا العمل العربي المتاح والمريح فقط ولكن العمل الممدوح « المبارك » ايضا . وقد

كان التاجر رمز الحضارة العربية الإسلامية وخاصة في عصورها الذهبية . ولكن التجارة العربية الواسعة التي سمحت بتكس الثروات والتفوق الحضاري والسياسي العربي انتهت منذ القرن السادس عشر ، مع عصر الاكتشافات الجغرافية . القرون الثلاثة التي تلت ذلك كانت فترة ركود لا في العطاء الحضاري فقط ولكن أيضا في علاقات العرب العالمية . انكشفت صلاتهم مع الدنيا والناس . عزلوا عن العالم كله بعلميتين متقابلتين فقد انفلخوا على العالم ضمن اسوار الامبراطورية العثمانية من جهة كما تضاءلت علاقات العالم الغربي المتقدم ، خاصة ، معهم من جهة اخرى ، الا ما يكون من محاولات الكسب والنهب الحربي او التجاري ، وبينما اصبح الوطن العربي كله قوقعة كبيرة ، انكفأت العملية التجارية الى الداخل وانفقرت بالاستهلاك الداخلي المحدود والجمود العام الاجتماعي والفكري . واذا اعاد العصر الحديث للموقع العربي منذ قرن على الاقل ، شأنه واهميته العالمية فانه لم يعد اليه « التجارة الدولية » . ظل الغرب هو الذي يحتكرها ويستغل المواقع العربية نفسها بالاستعمار والقوة العسكرية والتفوق السياسي والمالي والحضاري . واستمرت بالمقابل تجارة العرب بربة داخلية من جهة ومحدودة الردود من جهة اخرى . ولم يستنفد العرب من ثورة وسائل الاتصال والنقل الحديثة لانهم في الواقع ، لا يملكونها . كما انهم بابتعادهم عن طبيعة العلاقات التجارية المعقدة في الحضارة الحديثة خسروا الامكان والعلم والقدرة على معاودة السيطرة على هذه التجارة التي غادرتهم . وفي الظروف الحالية على الاقل الى الابد .

وضعف الانتاجية العربية الذي مضى عليه الان اربعة قرون او تزيد ترك بلاد العرب في وضع من الفقر التجمد ومن اقتصاد الكفاف التماذي السكوني في الوقت الذي كانت فيه « انتاجية » المناطق المقابلة جغرافيا للعرب على البحر المتوسط ، والتي نسميها « الغرب » ، ترتفع بشكل هائل حتى ظهرت الرأسمالية وما يتصل بها هناك ، وتطور مفهوم حديث للمال وفنائه وطرق استخدامه غريب كل الغربة عن المفهوم التقليدي العربي الموروث . . .

لقد اعتبر العرب - من خلال مراحل التاريخ - وما يزالون يعتبرون المال قيمة ثابتة لا حركية . وذا بعدين فقط سواء في حركته من بيع وشراء او في مادته من نقد وعقار . عشرات الاعداد التي فتحتها له الحضارة الحديثة في الشبكة العالمية المالية المعقدة ، ما تزال غريبة على المجتمع العربي الذي يحتقر - وربما بسبب فقره نفسه - المادة ، وينظر اليها كامر ثانوي غير رئيسي في دورة الحياة الكبرى . وما يزال يناقش مشكلة « الربا » كفضيحة حيوية ، ويجد العزاء الجميل عن فاقته في مصير « اولئك » الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فدوقوا ما كنتم تكزون . . . » ولقد يتكشف هذا الموقف السكوني والسلبى من المال حين ننظر الى حيرة العرب اليوم بهذا الدفق الهائل من الارصدة العربية المجمدة الذي هبط عليهم فجأة ، وعلى غير استعداد وانتظار ، فهم لا يدرون ما به يفعلون .

وعلى اي حال فان هذه الاوضاع الاقتصادية السكونية في الوطن العربي قد اصبحت بالرغم منها بعدد من الهزات منذ اصطدامها بالاقتصاد الاستعماري الغربي وبنمو الاستهلاكية المحلية وارتفاع مستوى المعيشة ولا سيما في المناطق الاكثر صلة واحتكاكا بالغرب وفي عقد الاتصال معه . . .

لم يصب الريف من ذلك الاصطدام الكبير انقلاب يغير مصارفه ، فيما عدا تحول مصر الى مزارع فطن لمصانع مانشستر في مطالع هذا القرن وتحول كروم الجزائر الى خمور في الاقضية الفرنسية ، فان

الريف العربي ظل على ادواته القديمة وعلى وتيرة انتاجه التقليدي وان دخلته الآلة والسدود في بعض الواضع فان انتاجيته العامة ظلت تقصر باطراد عن مدى الحاجة المعيشية للسكان المتزايدين . . . ولكن المراكز المدنية هي التي توسعت فيها طبقة البورجوازية الصغيرة ، التوسع الكبير الذي سيطرت معه على الاقتصاد من جهة وعلى الحكم بواسطة الجيوش التي افرزتها من جهة اخرى وعلى ما بين هذين القطبين من ثقافة وايدولوجية .

افرز التطور الاقتصادي والاجتماعي اذن خلال القرن العشرين طبقة وارثة جديدة في الوطن العربي كله الفت - الى حد ما - وفي بعض المناطق خاصة ، الطبقات (الاقطاعية - التجارية - العلمية) التقليدية وحلت الى حد كبير محلها في وظائفها نفسها ولكن تحت شعارات جديدة : هي الاقتصاد القومي (الاقليمي) والدولة القومية . ولكن طرق الانتاج لم تتغير كثيرا في سوى التصنيع المحدود وسوى ظهور طبقة عمالية متزايدة السعة ايضا في المدن العربية ، ولم تتركز الفعالية الاقتصادية العربية في هذه البورجوازية الناشئة فقط ولكن الفعالية الثقافية والسياسية ايضا للدرجة التي اوضحت معها حاجاتها وامالها هي حاجات وامال المجتمع العربي نفسه ، بعد ان فرضت نفسها كطبقة له ، لا سيما ان القطاع الريفي ما يزال على عطلته السلبية في الشؤون العامة . وما لم يكن للبورجوازية العربية الناشئة من طموح واضح حتى الان ابعد من الرقي الاقتصادي وذلك تحت تأثير قصورها الفكري وقيضان السلع الاستهلاكية من العالم المتقدم ، وكانت تعيش تناقص الازدواجية الحياتية بين موروثات الماضي الصلبة وطلعات المستقبل غير الواضحة ، وكانت تفكر حتى الان ايضا الى فلسفة فكرية واضحة تحدد لها الطريق فانها تتخطب وتتخطب معها الوطن العربي - في ما يمكن ان نسميه بالمنزلة بين المنزلتين او مرحلة الضياع والحيرة وفي مختلف الوان التشاؤم والقطاعات ، فهي في الانتاج بين الطرائق القديمة والمرحلة الرأسمالية ، وفي الفكر بين التراثية السلفية والعصرية الكاملة ، وفي السياسة بين دولة القرون الماضية والليبرالية والدولة الاشتراكية ، وفي المجتمع بين افسى التقاليد التي ضاعت مبرراتها القديمة وبين الانفتاح الاجتماعي الحديث الذي لم يتبلور فيه القيم الجديدة . . . واخطر شأنها انها استطاعت بعد ان ناضت اقسام منها للتحرك الوطني ان توجد لنفسها القوة الضاربة ، حين اضحى ضباط الجيوش العربية من ابناءها . . . وحين استطاعت ان تحقق سلسلة من الانقلابات العسكرية سيطرت بها - دون وضوح كامل في الرؤية المستقبلية او استعداد في الخبرات ، على معظم اجزاء الوطن العربي . . . ان التناقضات داخل هذه الطبقة هي التي انعكست قلنا وعدم استقرار في كافة هذه الاجزاء . . . كما انعكست استبدادا وخنقا للحريات وحفدا اعمى على كل من يقف في طريقها او يرفع شعار الوعي العقلاني . . .

٢ - تكون نظام السلطة مع التاريخ

لو شاء باحث ان يلخص في سطرين قصة النظام السياسي الذي ساد البلاد العربية في القرون العشرة الاخيرة (ان لم نشأ ان نذهب الى ما ورائها ثلاثة او اربعة قرون اخرى) لوجد انها ليست اكثر من تحالف مصلحي ثلاثي الاطراف قائم ما بين طبقة عسكرية غريبة دوما ولكن لها الرئاسة وطبقة من الاسر المحلية (الاقطاعية او التجارية) ثم طبقة تعيش على اطراف هاتين الطبقتين من رجال « العلم » الديني . . . ثم تأتي الطبقات الشعبية التحتية وتشتمل حرفيي المدن وفلاحي القرى . وهي الرعية الطبيعة وموضع الاستغلال الدائم والانتاج للاخرين سواء كانت من الاحرار ام من العبيد .

فأما الطبقة العسكرية فإنها وإن غيرت الأسماء من أتراك أوائل إلى بويهيين ثم إلى سلاجقة وأتابكة وأيوبيين ثم إلى مماليك ومغول (إيلخانية وجلايرية) وركمان (قره قونلو وراق قونلو) وصقويين ثم عثمانيين (1)، فقد كانت في الغالب من الأتراك كما كانت من المماليك الذي برزوا عن طريق الجيش وهذا ما كان يفرض على المنطقة العربية الشرقية خاصة الحكم العسكري القائم على قسوة السلاح. الرئاسة السياسية كانت دوماً للقواد في الجيش. وطريق الجند كان أقرب الطرق إلى السلطة. السيف والسياسة متلازمان، فإن تحولت الرئاسة إلى وراثة أسرية كما في العهد العثماني فإن الولايات المختلفة والأعمال كانت من حولها على الدوام للقيادة العسكريين الذين كانوا يحصلون تارة لقب نائب وتارة لقب باشا.. حتى طبقة المماليك وهم منعدود الإجناس، لم يكن تجمعهم إلا عصبية السلاح والاشتراك في استقلال الرعية الكادحة. وكثيراً ما كانوا أشبه بعصابات من اللصوص تشخذ الرعية منهم العطف شحاذة وتسجنيسر أحياناً على انطرافات تخفيف إغرام والضرائب والعدوان على الناس.

أما طبقة الأسر المحليه فإنما نسميها كذلك تجوزاً لأنها خليط متنوع من بقايا الطبقات الوافدة في الغالب: العسكرية والتجارية المتنقلة والموظفين الذين اغتنوا أو التمولين والإشراف.. ومراكز هذه الأسر إنما كانت في المدن حيث يقوم مركز الثقل السياسي. وكانت تجد في تحالفها مع الطبقة العسكرية سلاح الحماية لمصالحها في الإقطاع الزراعي والرعي الواسع أو في حماية التجارات والأموال والمغار. وبالرغم من أنها كانت أحياناً تنكب أو تنهب من قبل الطبقة العسكرية إلا أنها كانت تجد في الخضوع لها عن رغبة أو رهبة سبيل ضمان العيش القني الهادئ وتجد في الحصول على «الامن» تعويضاً كافياً عن ترك السياسة لأربابها..

وأما طبقة «رجال العلم» الديني فهم مجموعة تمتد من القضاة والمفتين إلى خطباء الجوامع بما في ذلك رجال الطرق الصوفية على اختلافها، وكانت وظيفتهم إفراز القيم والأفكار التي تخدر الطبقات المستغلة وتعطي التغطية الكافية للطبقات الحاكمة (بشكليهما العسكري والإقطاعي التجاري). أفكار القناعة. والتسليم. والرضى بالقسوم. وأطيعوا.. أولي الأمر منكم. «ورفع بعضكم فوق بعض درجات»، «ورفع درجات من نشاء»، «ويرزق من يشاء بغير حساب»، «ويعز من يشاء ويذل من يشاء» هي وحدها دون غيرها القيم والشعارات التي اختيرت من أوامر الدين ونواهيه. ويتبع ذلك تلك الأمثال والتعاليم الاجتماعية التي سربت إلى الناس البيد التي لا تقدر عليها قبلها وأدع عليها بالكسر، وأي من أخذ أمي صار عمي.. نسوم الظلام رحمة. يوم الحكومة بسنة وستنتها لا تتدبر. ظلم بالسوية عدل بالرعية.. أنها التراث السياسي الذي ما يزال قائماً في النفوس وكأساس للعلاقة بين الحاكم العربي و«الرعية».

وكما كان الحكم وراثياً والتجارة والإقطاع على الورثة كذلك تحولت في القرون الأخيرة مجموعة رجال العلم إلى أسر تتسوارث المناصب الدينية في شبه احتكار وتنهج بدورها موارد الأوقاف الكثيرة.

وأساليب الحكم إنما كانت نتيجة هذا الوضع النسلي الاستغلالي

المنظم فلما كان الهدف الأساسي للحاكم هو البقاء في الحكم أطول مدة يستطيعها فقد كان الأسلوبان الوحيدان المواتيان والمكتملان لمثل هذه الأوضاع هما: الاستبداد والسلطة المطلقة من جهة وسياسة القمع بالقوة والقهر من جهة أخرى. الحرية الوحيدة المتاحة هي حرية الحاكم وأعوانه في التصرف بأموال الناس وبالحدائق والفكر وتفسير الدين فحسب ولكن بالحياة نفسها أيضاً. الحكم نفسه كان فردياً، ولئن كان يحمل الصفة الإسلامية، إلا أنه لم يكن يصدر عن مبادئ الإسلام في الشورى والعدل ولكن عن أهواء المتسلطين. والعلاقات في هرم السلطة كانت مع من هم أعلى، علاقة الرشوة والنفاق والزلفى ومع من هم أدنى علاقة استعبداء وابتزاز، وما هذه بالضبط إلا تنمة تلك في علاقات الصعود والنزول.

وربما استطعنا أن نلحق بالطبقات الحاكمة «ذيلًا» تابعاً لها هو الطبقة البورقراطية التي كانت أشبه بكتابة أسرار الحكم، يديها الاتصال بالكبراء والحكام ويديها أسرار ومراسلات الدولة وسجلاتها وجدول الضرائب وأحكام القضاة والمفتين. ميزتها التي تكسب بها الخبز والرزق أنها تقرأ وجمهرة الناس أميون وإنها تشكل طبقة حاكمة وسيطة والناس كل الناس على الرهبة والرجاء من الحكام. «التحصلدار» و«اليازجي» هما مع العسكري نجوم المجتمع الأدنى والوجه المباشر لحكامه.

وأما الشعب المحكوم فكانت علاقاته مع الطبقات الحاكمة علاقات انقسام وانكماش ذاتي. نوع من القطيعة الكاملة كانت قائمة بين الطرفين فيها الحذر (مقابل النهب) والكره (مقابل الاحتقار)، والتدبير الفردي (مقابل الإهمال) توطدت لدى الطبقات التحتية مع الأيام عقد من المشاعر المستقرة أعطتها الظروف وتقلب الحكام وحكم السيف الف مرير، منها: الشعور بالعجز والخنوع والهرب من المسؤولية. ورفض التعاون مع الحكومة. وتحليل سرفتها: أموال «الميري حلال» والهرب من دفع الضرائب، التي كثيراً ما كانت تسمى «مظالمات». حتى المجرمون كان من العيب أخبار الحكومة عنهم وفي بعض البقاع الريفية كان من العيب دفع الضريبة طوعاً دون أن يسبقها «فتلة» تبرر الدفع.. «أبن الحكومة» كانت لا تختلف صورته عن أي عدو. المواقف منه تتسم بكافة ردود الفعل التي تبدر تجاه الأعداء. وكان من شأن الظلم المستمر أكثر من ألف عام أن ترك في قراوات النفوس نوعاً من التناثر. فتت مشاعر الانتماء والترابط القومي والولاء وحولها إلى مشاعر انانية انكماشية ذاتية. الانسحاق تحت وطأة الظلم التماذي حول الشعوب العربية رغم عوامل الانتماء والتقارب فيها إلى ذرات من الرمل. وإذا كان هذا الحال هو الذي لم يسمح لها أن تكون كتلة من القوة الصخرية المتماسكة فإنه هو نفسه الذي سمح للولايات القبلية والطائفية والمذهبية والمحلية أن تنمو. وسمح للوجاهات الفردية المحدودة أن تبرز. كان كل ذلك شكلاً من أشكال الدفاع عن الذات. حتى عصبية السلاح ما بين انكشافية مثلاً وسباهية وخصابية كانت نامية متحركة وحتى رابطة الحي الواحد كانت قائمة. وأما الوجاهات فكانت أشبه بخشبة النجاة.. أي اصطدام من السلطة كانت الوجاهات هي الوسيط لحل لا القانون ولا مبادئ العدل والدين.

وإذا نحن أهملنا الضربات الاستعمارية الغربية الأولى للعرب أيام الأسبان والبرتغاليين ومطالع التغفلل الإنجليزي والتي لم يكن من شأنها سوى عزل المنطقة العربية عن العالم، فقد فاجأ الاستعمار الحديث بلاد العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر بالهجوم الاحتلالي ثم ابتلعها قطعة قطعة حتى مطلع القرن الحالي فلم يبق خارج سلطته سوى الكتلة الوسطى من الجزيرة العربية.

وكان من نتائج الوجود الاستعماري وعمله فيما يتعلق بالتكوين السياسي العربي امران:

الاول : استغلال الاوضاع القائمة لمصلحته وهكذا فانه بعد ان حل محل الطبقة العسكرية الحاكمة واضعا بدلا منها « طامعا » من عسكريته تحالف مع الطبقات المستقلة الاخرى (من اقطاعية وتجارية ودينية) . واذا ولد من هذا التحالف بنتيجة الاحتكاك مع الغرب والاخذ بمبادئه السياسية طبقة بورجوازية في البلاد العربية بدا يظهر وجودها واثرها منذ اواخر القرن الماضي ثم ما لبثت ان حملت قسم منها راية العمل ضد الاستعمار حتى تحقق جلاؤه في الخمسينات والستينات فان هذه الطبقة التي كثيرا ما تحولت (كما في مصر والمغرب) الى طبقة رأسمالية لم تولد ولادة مثيلتها الغربية ولكنها كانت الشكل الجديد لتلك الطبقات المستقلة القديمة . صراع التناقضات وحلها في المجتمعات العربية الحديثة انما تم بالتدخل المباشر من القوى الاجنبية الخارجية الاستعمارية وتحت رعايتها مما حفظ لدى الحكام اساليب خنق الحريات والاستبداد والاستغلال القديمة من جهة وحفظ في الوقت نفسه ردود الفعل الانفصالية الراضية لدى طبقات الشعب من الجهة الاخرى . ومن هنا ذلك الازدواج المتناظر ما بين مبادئ الديمقراطية والحكم البرلماني وبين تطبيقاتها في البلاد العربية ومن هنا ايضا ذلك الفهم الازور لحقوق المواطن دون واجباته ومطالبه الشعب للحكومة بكل شيء دون التعاون معها .

الثاني : ادخال التجزئة الاقليمية والمنطق الاقليمي الى بلاد العرب . الحدود بين اقاليم العرب انما الاستعمار هو الذي وضعها جميعا ، مضيفا بذلك مشكلة جديدة الى التكوين السياسي . ما من حد في بلاد العرب على الاطلاق ، سواء فيما بين بعضها بعضا او فيما بينها وبين البلاد المجاورة وضعه عربي او اشترك فيه عربي (1) . حتى الاستعمار الواحد فرض التجزئة السياسية على الاقاليم التي دخلها فجعلها وحدات شتى (كما جرى في سورية ولبنان والمغرب بالنسبة لفرنسا وفي العراق وفلسطين والاردن ومصر والسودان بالنسبة لانكلترا) . واذا كان السبب المباشر في ذلك مقاومة فكرة الوحدة العربية التي بدأت تظهر في بلاد العرب فقد كان من نتائجها المباشرة ايضا ان تحولت هذه الحدود الى مسلمات بديهية لدى الشعوب العربية ، بعد ان مضى عليها حتى الان ما بين قرن الى خمسين سنة ، وظهرت على اساس ذلك مصالح اقليمية متنافرة ، ومنطلق اقليمي مبرر ، وكيانات اقليمية بقيت بعد ذهاب الاستعمار نفسه قائمة .. ولئن استند بعضها الى الاثريات والتاريخ الاقدم او الى اللغات المحلية المنذرة او حتى اللهجات العامة فان ما ثبت اسسها هو تلك المصالح الاقتصادية الطبقية التي ربطت بها والتي سميت احيانا كثيرة بالاقتصاد الوطني . وقد توطدت هذه الحدود الاستعمارية للدرجة التي وجدنا حروبا (كما بين الجزائر والمغرب) وشكاوي الى مجلس الامن (كما بين مصر والسودان) وتعديات عسكرية (كما بين الاردن وسورية او بين اليمن الشمالي والجنوبي) متبادلة تتم بين البلاد العربية الواحدة . ولا تستنكف الان اية دولة عن الاحتماء وراء المصالح الاقليمية في مباحثاتها مع الدول الشقيقة سواء تعلق الامر بمشروع مياه (كسد الفرات وقصته بين سورية والعراق) او تعلق بتحديد نقاط الحدود (كما بين الكويت والعراق ، او اليمنين) او بتشجير مالي (كما بين السعودية وسورية) او هجرة عمال (كما بين سورية ولبنان او بين مصر وليبيا) .. ان بعض دول العرب (كما في الخليج) مقلقة على ابناء البلاد العربية حتى للزيارة .

فاذا كانت الظواهر الاساسية في الحكم بالبلاد العربية ، منذ بدء الاستقلال في ختام الحرب العالمية الثانية الى اليوم هي تناقض

(1) لا يشذ عن هذا الا الحدود التي وضعت بين السعودية واليمن بعد حرب ١٩٢٤ .

قيمة الانسان العربي باستمرار كإنسان وانهمام القانون وسيطرة السلاح والعسكريين على السلطة حتى باسم الثورة . وكان الاسلوب السائد في كل مكان هو الاستبداد ودوس الحريات وتوحيد مفهومي السلطة والوطنية بحيث تكون « معارضة السلطة » تعني الخيانة الوطنية ، وكانت الحرية الوحيدة المعقولة هي حرية الحاكم في املاء رأيه والخيار الوحيد المتاح هو بين الخنوع او السجن او الرحيل . وكانت نمة قطيعة شبه كاملة بين فئات الحكام والطبقات المستقلة المتحالفة معها وبين الشعوب التي تتخذ الاكثية الصامتة فيها الموقف السلبي او تساق قطاعات منها مع النفاق السياسي في التصفيق لكل حاكم جديد وشيعة كل حاكم سابق .. اذا كانت الظواهر الاساسية هي هذه وكانت الاثرائية التي دخلت على بعض الدول والتي تقوم في الاساس على التخطيط والعلم وحب الانسان والعطاء والعمل المضاعف انما اقيمت عمليا على الارتجال والجهل والعقد والسلب واهمال العمل . وكانت الخطوات نحو الوحدة تتراجع وتتنكس بدلا من ان تنمو وتتوطد وكانت قوى الشعوب العربية بنتيجة ذلك كله تتناقص والثورات فيها تفشل والاستعمار يجسد الكائن ، اذا كان كل اولئك فلان نمة بين عواملها الكثيرة ورغم كونها ظاهرة من ظواهر التخلف في العالم الثالث ، نمة خلفية تاريخية واسعة من المعطيات الموروثة هي التي تعطي هذه الامور مركزاتها والنزعة الصالحة لقيامها .. ليست التربة فيما يقول الزراعيون « تقلب » بذور الاشجار المثمرة وتعيدنها الى اصلها الردي ... واذا كان نجاح الاستعمار انما يكون اولا بوجود استعداد لدى الشعوب المقلوبة له فان نجاح الديمقراطية والاشتراكية ومبادئ العصر السياسية لا يمكن ان يتم بدون وجود حد ادنى من الاستعداد لها . ان هذا الاستعداد لا يهبط هبة من السماء ولا يأتي بنقل النظريات والشعارات عفوا وتقليدا ولكن نكسبه الشعوب بالنضال الطويل وتدفع غالبا ثمنه في تاريخها نفسه .

ولعلنا مضطرون قبل طي هذه النقطة من البحث ان نشير الى اشكالية سياسية ذات جذور عريقة في التاريخ السياسي العربي هي التصاق الدولة بالدين والدين بالدولة منذ ظهور الدولة الاسلامية الاولى في عهد الرسالة . لا فصل بين الطرفين في المفهوم الاسلامي لان الاسلام دين ودنيا ، واذا كانت الفرق الدينية المتناحرة حول الخلافة وغيرها في التاريخ الاسلامي انما تمثل احزابا سياسية ، وكانت هذه الفرق - الاحزاب في بعض الاحيان اساس نشوء عدد من الدول ، كالادريسية والفاطمية والرستمية وامامة عمان وقرمطية البحرين وزيدية اليمن ، فان هذه الظاهرة ما تزال قائمة الى اليوم وقد كان من نتائجها في العصر الحديث مثلا ظهور الدولة السعودية على اساس الحركة الوهابية والمملكة الليبية على اساس الحركة الادريسية وقيام بعض الحركات الاسلامية السياسية في اطار الاهداف ذاتها (كحركة الاخوان المساهمين ، وحزب التحرير الاسلامي .. الخ) .

وبعيدا عن ان يكون الهدف من هذه الملاحظة شجب او تأييد لقاء الدين بالدولة ، فان هذا التراث التاريخي الطويل من اللقاء والتوحد قد ترك امام الدولة العربية الحديثة نغمة لا بد من ردها بمحاولات توفيقية قد تنجح او تفشل لا على المستوى التشريعي القانوني فحسب ولكن على مستوى الممارسة السياسية ايضا واقامة الوان من العقبات والازمات في وجه عوامل التحديث السياسي .

٣ - تاريخية العلاقات الاجتماعية

ولعل التاريخ لا يمكن ويتجذر في شيء قدر كونه وتجذره في العلاقات الاجتماعية . المجتمع في العميق العميق من الطوايا هوالذي يحتضن اكثر من غيره رواسب التاريخ وتأثيراته الباقية وجروحه ..

ومن هنا كانت المقاومة الاجتماعية للتغير اشرس المقاومات واقساها واكثرها تعقيدا . ولعلنا في نوع من التسيب والململة اللامسح، نستطيع ان نرى الابعاد التاريخية في التخلف الاجتماعي العربي، من خلال ثلاث زوايا تكون بدورها وحدة متكاملة :

١ - علاقات الأسرة : النظام الابوي ، الجنس والاراة .

٢ - التركيب الاجتماعي واطارات الانتماء : العائلة والعشائرية والطائفية .

٣ - القيم الاجتماعية : نظام القيم السلبى (المنوع) . والاسس السكونية (القمع والعجز) مفهوم الشرف الجسدي . عقدة النقص امام الغرب .

١ - الاسرة والنظام الابوي والجنس :

اذا كان التكوين البنيوي للمجتمع العربي يقوم كما في الكثير من المجتمعات الاخرى على الاسرة ، الحجرية الاولى ، فان هذه الاسرة تعرض اليوم الى ما نستطيع ان نسميه بالانسحاق او التفتت بعد وضع من التلكس دام اكثر من اثني عشر قرنا على الاقل . ان تاريخ الاسرة في المجتمع العربي ، وان كان يرقى الى ما قبل الاسلام بكثير ، فانها انما اخذت ملامحها المحدودة ، منذ العصر العباسي الثاني بعد ان توطدت خليطة المجتمع الاسلامي واستقرت مختلف الفاهيم الطبقية والدينية والاقتصادية والفكرية فيه وبعد ان ثبت نظام القيم ..

ان الامم التي تتسم بها علاقات الجيل الجديد بالجيل السابق اليوم انما تنجم لا عن ذلك التباين في النظرة الى الحياة والوجود والقيم فقط ولكن ايضا عن قسوة الفترة التاريخية التي تقوئعت داخلها تلك العلاقات في القرون السابقة . واذا جاز لنا ان نطفي هذه العلاقات في القديم اسم النظام الابوي فيجب ان نسرع الى القول ان هذا الشكل منها انما هو جزء متمم ومتساوق مع النظام الاجتماعي - السياسي العام الذي يقوم بدوره على الاستبداد . ويمثل الاب في البيت صورة مصفرة عن الحاكم السياسي الاستبدادي ويمهد له اذ يخضع الطفل ، في نظام التربية التقليدي الذي ما يزال شائعا حتى في المدن العربية المتطورة لسلسلة من قوى « الاخضاع » المستمرة ، ادواتها العقاب الجسدي و« العيب » والاستهزاء من الناحية النفسية والتقليين والتعليم التقليدي من الناحية الفكرية . النموذج الاجتماعي الاعلى الذي ظل مطلوبا ومطبقا عدة قرون هو نموذج الـ Conformist الذي ينشأ لا على صورة ابيه الجسدية فقط ولكن على صورته الفكرية ايضا وعلى وظيفته الاجتماعية الاقتصادية .. المجتمع قرر ان يكرر نفسه لانه اقتنع خلال العصور السابقة الطويلة بانه بعد ان وصل الى معرفة المثل الاعلى للانسان المسلم في عصر الرسول والصحابة ، لم تبق له الا ممارسة ذلك المثل بالتقليد والتكرار .. وقد ربط ذلك بالفاهيم الدينية وبالجزء الاخرى زيادة في توطيد التقليد وفي احاطته بالقدسية والتسليم .. فبلاد الاسلام كلها تحولت من بعد جغرافي، في وجدان المسلمين ، الى بعد مقدس . وكل صور الحياة فيها فانما هي بارادة المجتمع نموذج واحد مكرر .. ونتيجة لذلك فقد ثبتت وتوطدت العادات والتقاليد الاجتماعية حتى الاسر والتمتع .. اصبحت نوعا من الطبيعة الثانية للناس . وصار من الصعب التخلي بسهولة عنها او المساس بها واضحت جريرة التخلي عن بعضها اشبه في العرف العام بالخرق لامر ديني .

ولازم هذا النوع من التربية التقليدية الفاء حجاب كثيف على الحياة الجنسية ردها الى خفيات الشعور والى دنيا الحرمات . اخضعها بدورها للتعهر والقمع حتى اصبحت نوعا من الاسرار وعوامل الخجل . الكبت الجنسي حالة شائعة لها الف صورة والف جريمة والف عقدة وعقدة في المجتمعات التي نعيش . ولما كان الجنس مرتبنا بالمرأة فقد دفعت هذه بدورها الى الرتبة الانسانية الثانية وقرونا

طويلة . ولئن فرض عليها الحجاب فقد كان الحجاب اخف اقبالها في الواقع لان نوع العلاقة الذي كان يربط البنت بابيها او باخيها او بزوجها او بابنها كانت دوما تقوم على اساس التبعية المطلقة ان لم نقل العبودية . والمجتمع العربي رغم ما اصابه من عوامل التغير ، في العلاقة مع المرأة بالذات ، وفي مفهوم الجنس ما يزال ، تحت وطأة هذا التاريخ الطويل ، يضع نصفه المؤنث خارج نطاق المجتمع والحياة والانتاج باستثناء بعض المدن .. تخلف المرأة العربية لم ياتها من غمها الاقتصادي خلال التاريخ فلقد كان اقتصاد البيت والعمل في الحقل دوما من اعمالها بل لعلها - لولا الفزو - هي المنتج الاقتصادي الوحيد في الحياة البدوية ولكن انما جاء تخلفها من ضعفها الجسدي امام القوة . ومن ارتباطها بالجنس . حولها الضعف الى خادم وحولها الجنس الى اداة منعة ، نموذج « الجارية » بمعنى الخدمة والمنعة كان النموذج الذي يصور المرأة العربية عبر القرون الاخيرة ، السنا نرى الى هذا النموذج الموروث من التاريخ الوسيط ما يزال يسمى بيننا في منازلنا العربية ؟ .. وان شئت ان تراه اوضح ما تراه فانظر المرأة في الريف وانظر الى وظيفتها في بعض البقاع العربية البادئة في التطور ..

٢) التركيب الاجتماعي واطارات الانتماء التقليدية :

غياب السلطة السياسية كنظام امن وقانون وخدمة ، وتسلب القوة العسكرية الغربية على الناس واستمرار الاستبداد والظلم والرؤس الاجتماعي قرونا بعد قرون بحيث اصبح المثل الاعلى للحاكم هو الحاكم العادل ، كل اولئك اسهم في انكماش الفرد العربي ضمن قوقعته الذاتية . اشعره بعزله امام مصيره وبانه اعزل امام القهر الحياتي الذي يكاد - لانماجه مع مفهوم الفدر الديني - يصبح بدبية مقبولة وقدرنا مقدورا لا مفر منه وهذا ما اوجد فيه نزعتين متناقضتين ولكنهما رغم التناقض الظاهري فيهما متساوقتان لانهما تنبعان من منبع واحد هو غريزة الدفاع عن النفس . وقد جعلهما الاستمرار التاريخي نوعا من الطابع الاجتماعية المستقرة :

- فردية عمياء هدفها توكيد الذات لعدم الثقة بها وقد تصل الانانية فيها درجة الاهمال الكامل لمصلحة الاخرين وللمصلحة العامة كما تصل درجة النفاق والرياء المخزي امام القوى المسيطرة والانحناء للعواصف التماسا للخلاص ..

- نزعة جماعة دفاعية بدورها اوجدت ووطدت ضمن المجتمع العربي التقليدي خلال القرون السابقة تجمعات يهرب اليها الفرد العربي لاجئا في الازمات ، ومراكز قوة يستند اليها في الدفاع عن ذاته وفي الانتصار على مصيره الاعزل . وطبيعي ان تكون الاسرة ، وهي الحجرية - الركيزة في المجتمع ، هي الملجا الاول لا سيما حين تكبر لتصبح عشيرة واسعة . ولم تكن الاسرة في بعض الاحيان بالكافية في الدفاع ، فكان الفرد يضيف اليها الالتفات حول المذهب الديني او الاحتماء وراء اسوار الطائفة المذهبية ، او حتى الجماعة الحرفية او القرية او الحي في المدينة ..

وهكذا بينما كانت النزعة الفردية تفتت المجتمع العربي ، وتحوله الى اكوام من الرمل البشري البعثر كانت الحاجة الملحة الى الامن والاطمئنان تعود فتجمعه على الوان من التجمع المحلي والاناني . وكما ظهر النظام الاقطاعي الاوروبي منذ القرنين التاسع والعاشر كنوع من الدفاع السياسي والاجتماعي امام هجمات الفايكنغ الشماليين ، كذلك فان رد الفعل في المجتمع العربي الاسلامي تجاه الضعف السياسي والتمزق التماذي انما كان (بسبب ظروفه الدينية والجغرافية وحضارته المادية والفكرية وتكوينه التاريخي) بظهور ابراز خشبتي نجاة يلجا اليهما الفرد هما : العشائرية والطائفية . واذا كان المد البدوي الذي عاود السيطرة على المناطق الزراعية في بلاد العرب ايام العثمانيين هو

الذي اعاد العشائرية كنظام اجتماعي وعقلية سياسية الى النور والسيطرة في الريف فان الطائفية بدورها والعائلية الواسعة (الشبهة بالعشائرية وان كانت نواتها وكانت اضيق منها) هما اللتان سيطرتا بالمقابل في المراكز المدنية . ومقابل (اخوة السلاح - الخشداشية) عند الطبقة الحاكمة العسكرية نمت العائلية الواسعة لدى الطبقات المستقلة (الاقطاعية والتجارية والعلمية) ونمت الرابطة المذهبية ايضا (في اطار المذاهب الاسلامية او فرق التصوف كالمولوية والبكتاشية والسوسوية) ... اما لدى الفرق الاسلامية او الفرق من الديانات الاخرى (المسيحية واليهودية) فقد اصبحت رابطة الطائفة الدينية مؤسسة جماعية كبرى واساسية بجانب كونها علاقة دينية ، وهذه الطائفة التي كانت تسمح خاصة للطبقات الشعبية المسحوقة ان تربط بمراكز القوة والحماية ، كانت في الوقت نفسه تضع هذه الطبقات تحت تصرف وقياد استغلال الرؤساء الدينيين على اختلافهم ، في نوع مما نستطيع ان نسميه تبادل المصالح والتساند في الدفاع . وقد لعبت التدخلات الاوروبية خاصة دورها الكبير خلال الحكم العثماني في دعم ما يسمى بروح الجماعة *Esprit de corps* ضمن الطوائف الدينية المسيحية خاصة ولدى بعض الطوائف المسلمة ايضا ...

وقد كانت ثمة تجمعات دفاعية اخرى محدودة السعة من حرفة تربط بين ابناء الحرفة الواحدة ، او عصبية بين ابناء الحي الواحد في المدن او ابناء القرية ضد القرى الاخرى لكنها كانت تجمعات اقل فاعلية واترا في العملية الاجتماعية الدفاعية لان من السهل زوالها بتغيير الحرفة او تغيير مكان السكن وكثيرا ما كانت تعود فتنتطبق على القطين الاولين : العشائري والطائفي مما نستطيع معه القول بصورة عامة ان الانتماء الاجتماعي وان الولاء انما اخذا ضمن الجماعة العربية ، خلال عدة قرون ، وحتى مطلع القرن الحالي شكلين محورين لا علاقة لهما لا بالارض ولا بالجماعة الواسعة : ولكنهما تساوقا في الوجود التاريخي ووجدا في وقت مما :

- عصبية القري والنسب والرابطة الدموية المتمثلة في القبائل والعشائر (الحمولات) في البادية والريف والعائلة الكبيرة في المدن .
- عصبية الدين والطائفية المتمثلة في المذهب الديني الضيق بالنسبة للاقليات الدينية خاصة سواء كانت مسلمة او غير مسلمة .
اما الرابطة التي تربط هذه المجموعات بعضها مع بعض ضمن الاطار الاوسع وتجعل منها المجتمع العربي الاسلامي (المملوكي او العثماني) فلم تكن اكثر من رابطة المساكنة او الاشتراك في سكنى منطقة او مدينة واحدة وكانت رابطة سكنوية لا تسمح باي تفاعل لا مع الارض ولا مع البشر الذين عليها . المجتمع نفسه بسبب من انفلاقه السياسي والاقتصادي كان قد تحول في علاقاته الى الهمود والركود فلم يسمح بقيام علاقة بين المجتمع ككل وبين الارض (وطنية) من جهة ، ولا بين المجموعات البشرية فيه بعضها مع بعض (قومية) لتندمج في كتلة اجتماعية ايجابية من جهة اخرى .

وحين هبت رياح القومية من اوروبا واخر القرن الماضي على بلاد العرب حاول رجال النهضة العربية القفز من العشائرية والقبلية او التوسع بهما واغراقهما في القومية الواسعة وظهر مفهوم الامة العربية والعروبة . وبالرغم من ان هذا المفهوم قد حاول في الشرق العربي ان ينفصل عن مفهوم الاسلام بسبب من تواقفه في الظهور مع القومية الطورانية التركية المسلمة وقيام العداة بين القوميتين ، الا انه لم يجد مثل هذا التحدي في المغرب العربي ، لان المستعمر كان مسيحيا فلم ينفصل المفهوم عن احدهما عن الاخر فالعروبة هناك هي الوجه الاخر الحديث للاسلام . هما وجهان لعملة واحدة .
اما مصر بين الطرفين فقد كانت بسبب عراقية تاريخها الخاص وتفردا بالسبق في النهضة تدفع الولاء الاجتماعي فيها في اطار تطورهما الذاتي فهو مصري اقليمي فان توسع شمل وادي النيل ...

وعلى اي حال فان هذه المفاهيم ذات الطابع السياسي لم تستطع ان تاخذ ابعادها الديناميكية في اليقظة القومية لانها لم تجد في الخلفية السيكو - اجتماعية للشعوب العربية قاعدة اجتماعية موحدة صلبة تستند اليها . تنزلت في المشرق العربي فوق قاعدة مقسمة الولاء بين العشائرية والطائفية واصطبغت احيانا كثيرة بصبغتها وفانست من عقابيلها بينما تنزلت في المغرب العربي فوق قاعدة اسلامية تقليدية فعملت بصورة آلية كل ارض الماضي ودواسته الميتة ، وظلت في نص بين هذا وذاك فلا هي هضمت القومية العربية كمنطق ديناميكي (اجتماعي سياسي) للنهضة ولا اعطت الاسلام مطلقا جديدا ولا تجاوزت الاقليمية الى افق اوسع ، وبالمقابل فان الافكار الحديثة في الديمقراطية والتحرر والمساواة وحقوق الانسان لم تستطع ان تستقر وتتوطد وتطوي نمارها في اعادة التكوين الاجتماعي لان مفهوم القانون نفسه ظل قلنا يصطدم بالولاءات الاجتماعية الورثة ويصطرح معها وقد يتراجع امام الانتماءات العشائرية والطائفية ...

ثم ان علاقتنا بالمغرب صاحب هذه الانكار كانت على الدوام علاقة منسوية . واذا كان هدفه على الدوام قهرنا فقد اورثنا هذا القهر الكثير من العقد السيكو - اجتماعية : كالتفرد امام قوته ومركبات التقص والحرب للعاصي والتمسك الاعمي بالتراث او بالعكس او التقليد الاعمي للغرب في الوقت الذي كان فيه هذا الغرب الاستعماري يستغل باستمرار الانتقاسات الطائفية ويفذي الولادات العشائرية ويقدم على هذه . وتلك استراتيجيته في البقاء ويعتمد بشكل مواز للتقسيم السياسي ايجاد نزعات اقليمية محلية (فينيقية فرعونية قومية سورية - بربرية ...) يصر الى مساربها الضيقة ذلك الولاء القومي العربي الاوسع الذي اخذ ينمو باطراد . كما يفذي ويوقد الصراع بين مفهوم العروبة والاسلام ... وهكذا بينما كانت الخلفيات الاجتماعية التاريخية تلعب دورها السلبي باستمرار في عرقلة قيام تكوين اجتماعي عربي معاصر واضح الولاء والانتماء الى الارض (الوطنية) او الى الجماعة (القومية) واضح العلاقة والصلة الوطنية بين العروبة والاسلام كانت العملية الاستعمارية بالمقابل تسعى للحفاظ على الواقع الاجتماعي القديم وعلى انتماءاته التقليدية لاستغلالها الكامل ... وليس من الاسرار ان المجتمع العربي اليوم يعاني في العديد من بقاعه كلبانان مثلا وسورية ومصر من المشكلة الطائفية كما يعاني في العراق مثلا والجزيرة العربية والمغرب العربي من المشكلة القبلية - العشائرية ، ويعاني هنا وهناك على السواء من مشكلة مصطنعة هي الانتماء الديني (للاسلام) او القومي (للعروبة) او من مشكلة التخلص والتجاوز لا لعق الاسلام من رواسب اجتماعية جمعت على جباه اصحابه كل قدرة خلاقة .

(2) القيم الاجتماعية :

اذا انتهى المجتمع العربي الاسلامي خلال عدة قرون الى ان يتحول الى مجتمع راكد ، المحافظة هي همه الاول ، فمن سمات المجتمعات المحافظة ان نظام القيم فيها انما يقوم على اساسين :

الاول : انه نظام خارجي ، او قبلي لا تنبع القيم فيه من الذات الداخلية ، من حاجتها وقناعاتها والامها ولكن تنحدر من عل ، وقد تتصل بأوامر الدين ونواهي . انها اذن ليست ارضية - وان كان اهل الارض هم الذين صافوا معظم قوايلها وحدودها - ولكنها علوية غيبية الحكمة ، وليست ذاتية المنطلق ولكنها خارجية مفروضة من عالم الغيب على عالم الشهادة .

الثاني : ان المنطلق الرئيسي فيها هو « المنوع » لا المسموح . تقوم على اساس قاعدة السلب لا الايجاب . ال « لا » هي المنطلق فيها وقد تنفخس ال « لا » وتكبر لتدخل منطقة الدين و « الحرام » فهي عند ذلك امر مقدس ، تكرسه الجماعة جزوا من متممات الدين ، وان تكن اساسه في بعض الاحيان اجتماعية بحتة . انهم لا يعدمون الوسيلة

والاخرين من وراء كل ذلك ... ان عصورا كاملة ، منذ العهد التركي الاول الى المملوكية ثم الى العثمانية كلها اسهمت في توطيد هذه المسلمات الاجتماعية عصرا بعد عصر نتيجة الفئاعة العامة بان المجتمع العربي الاسلامي قد عرف ذات مرة في صدر الاسلام قمة الكمال فليس له اذن الا ان يكررها ، وليس له الا ان يضع لها التفاصيل ويحيطها بالسياج المتين ...

وحين اصطلحت هذه القيم بالحضارة الغربية العدوانية كانت المفارقة من العنف بحيث اوجدت نوعا من الانقسام في الفرد العربي . القيم التي كانت منسجمة مع معطيات عصورها اصبحت متناقضة مع حاجات العصر وحفرت في الذات العربية نوعا من « المأساة » قوامها التمزق بين كل ذلك التراث الاجتماعي المتكامل وبين ضرورات التفتح والتمرد الحديث .. على الافاق الجديدة .

واذا كان الاستعمار الغربي قد استغل هذه القيم التقليدية جميعا في ميافييلته الاستثمارية . استغل حتى معطيات الدين فان اهم ما اضافه اليها هو عقد النقص ومشاعر الفخر امام تحديه الحضاري واذا اختلفت حدة هذه العقد والمشاعر بنجاح ثورة الجزائر فقد عادت وانكشفت جميعا اثر هزيمة العرب امام اسرائيل ١٩٦٧ حتى استردوا الثقة بانفسهم مرة اخرى اثر حرب تشرين ١٩٧٣ .

(٤) المعطيات التراثية في الفكر العربي

(الايديولوجية الفكرية - التعليم والتعبير اللغوي)

التساؤل الاخير هو عما في الميدان الثقافي العربي من بضاعة تاريخية سواء في الاسس او في ادوات الفكر ...

اولا : فاما في الاسس فان منظومة الافكار التي يدور الفكر العربي المعاصر في فلکها وشكل اسسه ومنطلقاته ليست بنت هذا العصر بالطبع ، رغم ما فيها منه وما تحمل من طابعه . الامم لا تغير افكارها بالسرعة التي يغير بها المرء ملبسه . انها تراث من « الصادات » الفكرية والطرائق تعشش فيها وتكون مع القيم الاجتماعية وطرق الانتاج ومبادئ السياسة وحدة متكاملة .

ولعلنا نستطيع دون كبير ابتعاد عن الواقع ان نرد النسيج الاول لمعطياتنا الفكرية التراثية الى ما بين اواخر العصر الاموي ومطلع العصر العباسي الثاني . تلك الفترة الممتدة ما بين مطلع القرن الثاني الهجري واواخر القرن الثالث هي فترة الربيع في العطاء الفكري - الاسلامي . فترة التفتح الاخذ المعطي . ما كان بعدها فانما كان يبادر الصيف ومواسم الثمر الناجح لقرن او قرنين ثم كان الذبول البطيء التمهادي عدة قرون . العلم الاسلامي بمختلف اسسه وطرائقه وفروعه انما وضع في تلك الفترة الخصبة فتنح عيال عليه الى اليوم . وعلوم الاوائل انما تعربت ، واصبحت قطعة من الثقافة العربية الاسلامية واخذت اقصى ابعادها في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء في تلك الفترة ايضا فلم تطف اليها القرون التالية بعد النضج من جديد ...

كل ذلك التفتح الابداعي الاول ذبل بعد ذلك . لم تنقطع الحضارة ولكن ضمير الجانب الابداعي الخلاق في الفكر . تحول الزهر ثمرا ولكن المواسم لم تات بزهر جديد . معاناة القرآن اقتصر على القراءات والتفسير . الحديث اقتصر على التلقين والتردد الحرفي . حتى الفقه اغلق باب الاجتهاد فيه . والفرق الدينية التي ابقت على الاجتهاد مفتوح الابواب لم تستطع ان تبعد فيه الجديد بعد ان قيست نفسها بدورها بالقيم الاولى . النحو جمده عند مدرستي البصرة والكوفة . اللغة ، ظل علماؤها على ما روى الاصمعي وابو عبيدة . الطبقي ظل ابا النواريخ ، فالباقون ذبول له واتباع . الجغرافيون كرروا ما قاله السابقون حرفا بحرف . دنيا الفلسفة وهي دنيا الفكر الحر بعد ان حاولت النفوذ من باب علم الكلام والاعتزال الى الساب الفكري الارحوب وقعت اسيرة منطق ارسطو وحوارية سقراط ، ثم سحقتها محاولة

لربطه بالنظام الديني حفاظا على سكونية المجتمع ... ان جنود هذه اد « لا » انما نبعت من جدلية الصراع الطويل الذي قام بين الفرد العربي والمجتمع فاذا كان طول جهود الضغط والظلم السياسي والقهر الاجتماعي والكلبت الجنسي والقبود والروابط خلال القرون المتتالية قد جعلت الفرد العربي ذا طبيعة كلبية ابيقورية وميافييلية في وقت معا . تصدعت الانا فيه حتى ملأت كل الاطار امام عينيه فهو لا يرى غير ذاته ومصطلحه الضيقة وربيبته الحذرة فان الجماعة بالمقابل عرفت كيف تضغط هذه « الانا » المتورمة ، المتضخمة التضخم المرضي . وتعيدها الى قفص العجز والصغار عن طريق نظام القيم القمعي الحرمانى . وجدلية الصراع بين الطرفين هي نفسها التي شكلت بعد هذا اسس القيم الاجتماعية العربية عبر السنين وهي اسس سكونية كلها اخذت شكل الاهتال والحكم الدارجة وقد تستعين بآي القرآن ، ويمكن ان نرى ملامحها في عدة وجوه ...

١ - القناعة المادية والرضى ، فالقناعة كنز لا يفنى والرزق مقسوم ولا تتطلع لاعلى منك تعجب ،

٢ - التسليم بالواقع : ويدخلون ها هنا ارادة الله ليعطوا التسليم شكل الايمان الديني . وهكذا يصبح الفقر من امر الله والظلم في الارض عقوبة الهية على الفساد والتقليد الاجتماعي قمة الكمال واقصى التطلع الديني ..

٣ - الشعور بالعجز فالعين لا تقاوم الخور . وصغر الانسان امام الله يسحبونه على الصغر امام الحاكم ...

٤ - الهرب من المسؤولية على طريقة لا تتم بين القبود ولا تو المنامات الوحشة . السنا نلقي بكل اوزارنا الخلفية على الشيطان وبكل اسباب تخلفنا وهزائمنا على الاستثمار ؟

٥ - الاتكالية : فرزقكم ياتيكم وما توعدون ، ولا تفكر فالله يدبر . والناس ليس بيدها شيء ... ويستنتجون من ذلك ان لا ضرورة للعمل ...

٦ - والنفاق الاجتماعي ، فمن يأكل من خبز السلطان يفرط بسيفه .

٧ - الشرف الجسدي وقد تحول مفهوم الشرف من القيم المعنوية الى الاطار الجسدي . ليكون حارسا للكلبت الجنسي ... وبلاضافة الى الوازع الديني ، فقد ربط الشرف ، وهو القيمة الاجتماعية الكبرى بادنى ما في الجسد ليكون احد عوامل القمع الاجتماعي من جهة وليكون في الوقت نفسه عاملا من عوامل الحفاظ على الانقسام الاجتماعي العموي القبلي ...

وبالرغم من ان هذه القيم المختلفة كانت في الاصل حاجة حيائية لاقامة التوازن في الحياة العربية الناشطة المتفجرة ، كانت نوعا من الصبر على الشدائد ومن الترضية اليمانية ومن المونة الخلقية السامية ومن الحفاظ على النيل يوم كانت قيم العمل والفكر والابداع فاعلة ، ديناميكية ، حية . الا انها انحطت مع فقد هذه القيم وغيابها عن الحياة العربية في عصور الركود ، فبقيت اشبه بالقوالب الفارغة وصار الصبر استسلاما والرضى اليماني جبرية خانعة والاستمانة بقوى الروح اتكالية وقصورا ذاتيا والنقاء الدموي عشائرية عمياء وقيما حيوانية ...

ولقد نستطيع ان نضيف الى هذه القيم التدهورة قيما اخرى من مثلها ولكنها على اي حال لم تكن جميعا لتقوم بذاتها وتستمر في البقاء لولا الركود الحيواني المكور ولولا ان نصب بجانبها سلم من العقوبات الاجتماعية القمعية يبدأ من الاستهزاء والتخجيل وقد ينتهي بالموت (كما في حالات خرق القيم الجنسية خاصة) . نظام كامل من الازهاب الاجتماعي يسهر عليها وكل فرد فيه خفير ، وكل عين رقيب هذا بجانب المعصا الدينية الغليظة المرفوعة بالشواب والعقاب السديويين

مسلمات الناس الفكرية فلا العقل يرفضها ولا المنطق يقف لها أو يدينها .

– ان تقبل الاسطورة فيكون لكأن معين أو يوم محدد أو شجرة أو حيوان أو انسان قدسيات خاصة أو قدرات غير محدودة . وقد خلق هذا نوعا من الذهنية الاستلابية اشتزكت في تكريس الازواضع الاستغلابية والسياسية التي سادت تلك العصور . وما اكثر ما انسحب التابو الاسطوري على المواقف السياسية والاجتماعية وعلى الوان الظلم فخرها أو علقها بمنغذ منتظر أو قدرة منتقمة فوقية . . . حتى اذا انهار الظالم لسبب أو لآخر أو قتل المجرم كان ذلك جزاء وفاقا .

ونسرع هنا الى تسجيل ملاحظة احتياضية هامة هي ان الفكر العربي التراثي لم يكن فيبياً كله . كان جانب العقل والفكر العلمي في العصور الاولى ناميا وقويا ومنتجا بدوره ، ولكن الجانب الفبي هو بقي وسيطر منذ القرن الخامس خاصة . وظهر في الجماعة الاسلامية من الصوفييين والمدنيين الفبييين اصماف اصماف ما ظهر فيها من رجال العقل والبحث العلمي الذين اندثر خبرهم بالتدرج منذ العصر السلجوقي .

(٢) التلقينية : ونقصد بها اقتصار العقل على التلقين والترديد ، ان اساس هذه الخاصة انما يمكن في التسليم للسابقين بالافضلصة المطلقة وفي سيطرة الموتى على الاحياء . ان توقف الاجتهاد الفقهي مشلاً لم يكن سببا في جمود الفكر العربي الاسلامي ولكن كان نتيجة الازواضع الفكرية العامة التي آمنت بدونية الاحياء وتفوق السلف التفوق النهائي . اعتبار عصر مضى احسن عصر . واخلاقية سابقة اسمى اخلاق وفكر مضى اروع فكر . . . هذه العقلية السلفية من بديهياتها رفض التجاوز والاقتصار على التكرار والترديد والتفردم الفكري المتماذي . . .

وإذا عدنا الى التاريخ وجدنا ان امارضة السياسية الدينية هي التي بدأت رحلة التلقين والتعلم . عصمة الامام ، وعلمه بالعلم كله وضرورة اخذ هذا العلم عنه اوجدت خطا فكريا « تعليميا » بلغ اوجه يوم انشا الفاطميون الازهر ونظموا جهازهم الدماي الفاطمي ادق التنظيم وسلحوه ، عبر الكتب والدرجات والعبادة ، باكمل الاسلحة . وقد تبه السلاجقة الى فاعلية هذا الجهاز الحركي والسى خطره السياسي على سلطاتهم السني فقابلوه بجهاز مماثل . . . وهكذا ظهرت سلسلة المدارس التي عرفت بالنظامية والتي ما لبثت ان عمت العالم الاسلامي السني في كل مكان ورصدت لها الاساتذة والاقواف لتخرج اجيالا بعد اجيل من العلماء الرسميين الذين سرعان ما تسلموا الوظائف الدينية والمدنية ايضا في الدول الاسلامية المتتالية . ولكنهم جميعا انما كانوا يصاغون ضمن قالب معين وتدرسي مكرور محدد . . . وإذا تراجع التنظيم الدماي الفاطمي بعد انهيار الفاطميين أو انعزل الى بعض الانحاء البعيدة بينما سيطر خريجو المدارس السنية عبر العصور ، فقد انتهى هؤلاء واولئك معا الى مواقع فكرية واحدة هي مواقع المحافظة والتلقين والوقوف عند النص المسطور وما رواه الشيخ السابق لتلميذه اللاحق . . .

(٣) السكونية : وقد نستطيع ان نسميها اللاتاريخية ايضا ، ذلك ان الفكر العربي الاسلامي بعد مرور العصور الاولى اعتبر وظل يعتبر ان مرور التاريخ والزمن ليس بذي قيمة وان بالامكان اعادة الحياة الى عصر سابق في جيل لاحق . . . مقولة الصلاح لكل زمان ومكان استقرت كمقولة اساسية من مقولات الفكر والحياة . القيم التراثية الاولى اخذت دوما صفة القيم المطلقة والماضي اصحى دائم الحضور والصفط على الحاضر ويرغم معطيات التغير المفوسة ومن معايشة العلماء لها وتطويرهم حتى اللباس والقيم الاجتماعية والسياسية معها فانهم ظلوا يعتبرون تفيرهم ابتعادا نحو الاسوا عن العصر المثالي الذي يجب ان يعاش : عصر الرسالة والصحابة . تفديس ذلك العصر سطح النظرة الفكرية والفي عامل الزمن . . . جعله حيا اكثر من الواقع الحي وان كان هذا الواقع

التوفيق بين العقل والدين ، بين العقول والمنقول . الكيمياء دارت حول حجر الفلاسفة تفتش عبثا عنه . ورثت المشكلة عن الافريق فلم تتنازل عنها . بطليموس كان الامام وصاحب القول الفصل في الفلك وان كان كثيرا ما يكذب أو ينقص . حتى الانجازات الرائعة التي قدمها العرب في علوم الفيزياء والرياضيات والفلك والنسبات والظب ظلت في حدود الحاجات العملية اول الامر ثم ما لبثت ان طغست بالاهمال والتقليد التلقيني (١) وحتى تلك العقول التي اتخلت منطلقات فكرية مبانة للاعتقاد العام كاخوان الصفا ومكري المذاهب الباطنية اغرقوا انفسهم وجهودهم في التصورات اللاهوتية التي حولتهم الى فرق تعليمية تصب الفكر في القوالب والاطر الصورية والتاملية . وفكر « الجماعة » وفكر الشيعة كلاهما دخلا اطرارات التلقين والاشكال المحدودة . . . وبهذا الشكل جاءت العصور البويهية ثم السلجوقية ثم الملوكية – المغولية ثم العثمانية على ايقاع ثقافي واحد لا يتغير . كان العقل خلالها اداة ترداد لا اداة تحليل ونقد خلق . . . ووسيلة من وسائل توطيد الواقع الفكري و « تجذيره » لا نقده ولا تجاوزه الى ما وراه . الحفاظ الفقهاء . اللغويون . الشعراء . الخويون . الكيمائيون . علماء الفلك والرياضة . اصحاب الفلسفة ، كلهم كانوا يعيشون على التراث السابق ويرددونه ويكررون . جعلوا مهمهم في حفظ وتسجيل « سير رجال » العلم ، لا في تطوير العلم نفسه . مبثا تفتش بعد القرن الخامس عن انتاج « ابداعي » جديد ، عن خلق علمي . قصارى الجهود الفكرية انما كانت في الجمع والتلخيص والشرح والتذييل . والاضافة ونظم المنثور . في اعمال الاجترار . وحين جاء العصر الحديث كان صقيع العلم قد اصاب كل البراعم . . .

ولسنا في صدد تدبيح هجاء لتلك العصور ولكننا فقط في الوصف الموضوعي لمساراتها الفكرية التي كانت تشكل منظومة من الاسس او ايدولوجية فكرية هي في الوقت نفسه السبب والنتيجة معا في التخلف الحضاري العربي وملاحه هذه الايدولوجية ما تزال حية تسمى بين ظهرانينا الى اليوم ، وقد كانت تشكل من قبل وحدة متكاملة متساندة بعضها مع بعض من جهة ومع المواضع الحياتية الاخرى السائدة من جهة ثانية ، ولقد نستطيع بيان تلك الملاح في النقاط التالية :

(١) الفيبية : ان غلبة التقى على الفكر وغلبة قيم التسليم على القيم الدينية الاخرى نقلت الفكر السبيي التعليلي من الارض الى السماء . ابرزت جانب الله في الفعاليات الحياتية على حساب الانسان . وبهذا الشكل اعطت الفكر العربي ، خلال التاريخ ، فرصة واسعة للكسل والعطالة ما دام بالامكان تعطيل كل شيء « بعلة الملل » ، القادر على كل شيء وبدلا من التفكير في الشيء صار يكفي التفكير الاقرب والاسهل في ما وراء الشيء . وقد انحط هذا التفكير الماورائي بالتبرج حتى اصحى باسم التقى وعمق الايمان يقبل امورا شتى منها :

– ان تمطل قوانين الطبيعة بالكرامات وان يستطيع نفر من ذوي القربى الى الله ان يلعبوا بها كما يشاؤون . صارت المعجزة والخوارق مما تقبله العقلية العلمية وتسلم به .

– ان تتدخل في قوانين الطبيعة قوى غير منظورة فتحرفها او تخرفها وان يكون بالامكان عن طريق « كلمة » سحرية تسخير هذه القوى في ذلك . السحر والاحجبة والتمايم والتعاويد اخذت مكانها من

(١) ليس المراد من هذه الكلمات على الاطلاق انكار المساهمة الهامة التي اضافها العرب الى تراث الانسانية الفكري خلال الحضارة العربية الاسلامية ولكن الاشارة فقط الى ان هذه المساهمة لم تستمر وتتطور الى مجالات علمية وفكرية اوسع واعمق وان غلبة الفكر التلقيني خنقتها وقتلت الامكان الذي كانت تعد به .

بعبدا كل البعد عنه ... صار نوعا من الغالب الاسمي تجهد العصور التالية للدخول في اطاره لا عن طريق المهانة من جديد ولكن عن طريق التقليد البحث والبيغاني ايضا وعن طريق الوقف السكوني ...

ما من شك في ان فهم التقى والايمان على النحو التسليمي هو الذي لعب الدور الاول في هذا المجال ولكن العصور التي يسمنونها بعصور الانحطاط منذ السلجوقي حتى المملوكي والعثماني ، كانت تجد في التعلق بذلك العصر المثالي وفي تقديسه نوعا من التقيؤ والتفطية على مفاسدها وانحطاطها وعقمها الفكري والحضاري . ومن امثلة ذلك انه حكم على عمر بن عبد العزيز من خلال شبهه بعبدل عمر بن الخطاب ، وارتفعت قيمة نور الدين كحاولة عمرية ثانية ووجد بعد عصره بقرنين من يكتب سيرته كنموذج للحاكم المسلم ... وظلت الخلافات السياسية التي ترجع الى العصر الاسلامي الاول حية في نفوس الناس تشعل الخلاف بينهم عبر القرون (فرق الشيعة والسنة ...) وفضل الناس اعتماد حديث غير صحيح على التدبر العقلي ، وهكذا سكن الفكر كله عند منطف تاريخي محدد ، عند مرحلة واحدة من الزمن ، وعندما يتعلق بها من علم وفكر وقيم . او لنقل انه ، بدل السكون ، كان يتحرك ولكن في حلقة مفرغة تبتدىء من النصي لتنتهي في النصي ايضا ... وهكذا اخذ الماضي (او التراث) حجما غير طبيعي ، وغير مرير ضمن الحاضر حتى ابتلعه والفاء وسد منافذ الابداع والتجاوز له ... ان سيرة الفكر منذ اوائل العصر المملوكي حتى اخر العهد العثماني لم تصف كلمة الى الفكر العربي الاسلامي كانت سيرة الناسن السكوني ، واجترار السابقين ودوار الفراغ . العلم نفسه صار من جهة «وظيفة» سياسية اجتماعية ورائية ذات عائدات مادية محددة باهواء السلاطين او بشروط الواقفين ، وصار من جهة اخرى نوعا من الزخرف والزينة . لقد بلغ من سكون الفكر ان كانت الطاقات المبدعة تشغل نفسها احيانا كثيرة بالوان شتى من التجميع او من النظر في التأليف . الموسوعات الكبرى التي تعلم (صبح الاشى ، نهاية الارب ، مسالك الابصار ، تاريخ الاسلام ... الخ) ليست الا ضربا واشفالا للفاعلية المبدعة . وتلك المحاولات التلخيصية من الالفيات والتذاكر والشروح والهوامش هي هرب من نوع اخر . بل لقد ترى احيانا بعض المؤلفات العجيبة من مثل رجل جعل مؤلفه على شكل اثني عشر جدولا متجاورا لاثني عشر علما نستطيع ان نقرأها طولانيا فاذا هي علم النحو او العروض او الاصول ... وتستطيع ان تقرأ الجداول المتجاورة عرضانيا فاذا هي علوم اخرى ومباحث في الفقه والتصوف والفرق والتاريخ ... الخ .

(٤) الارهاب الفكري الجماعي وهو الصورة الاخرى للكلمة للكبت الجنسي والضغط الاجتماعي والاستبداد السياسي . مواقف كلها تتبع من موقف واحد هو قتل التمرد على النظام الحياتي العام . والاضعاع للمواضعات الموروثة . ولقد كان في التاريخ العربي الاسلامي الاول مشاهد من الارهاب الفكري . كان منه ما نعرف مثلا ضد ابي ذر او زمن الحجاج او هشام بن عبد الملك او ايام محنة ابن حنبل من قبل المأمون والمعتصم او قصة مصرع الحلاج او السهروردي ، ولكن لسنا الى هذا النوع من الارهاب الفكري نقصد . هذا الاضطهاد انما كان صراعا فكريا بين مذاهب حية ويستعين فريق منها بقوة الحكم على الاخر . ولكن المضطهد والمضطهد ينطلقان فيها من عقيدة ذاتية توصلها اليها فهما يصطرعان على مستوى واحد من الايمان لاقرارها . ولقد يكون في ذلك عدوان على الحرية الفكرية ولكنه ايجابي ديناميكي حي . وانما نقصد الى الارهاب الاخر : الارهاب الذي يستهدف فرض الختوع العام والعمل على استمرار المؤسسات الفكرية بالتسليم الجماعي على شكلها الموروث . مؤرخ تحت الحكم الفاطمي ذكر الامويين بعض الخير فحضر مركزه ومحي تاليغه وآخر في الاندلس تجرأ ان يناقش امية الرسول فاجبر على الهرب من البلاد وثالث (هو احمد الغزالي شقيق حجة الاسلام) خطر له ان يقدر موقف ابلوس من وحدانية الله فرمي

بالكفر والحجارة ، ورابع وجدت في منزله كتب الفلسفة فأحرقت في السوق بعد ان استتابه الخليفة وخامس انتقد موقف بعض الصحابة من الرسول (وهو موقف خيانة) فهجره الناس حتى اضطر ان يلزم بيته شهرا لا يفاديه ... وسادس كابن الخطيب نبش من قبره مرتين للتمثيل بجثته وسابع كابن رشد احرفت مؤلفاته امام الناس ...

ولسنا نعني من هذه الامثلة الدفاع عن مواقف اصحابها وهي مواقف تحتمل الجدل الكثير ، ولكننا نقدمها كنماذج متطرفة تكشف عن الموقف الفكري العام المؤيد من قبل السلطة ومن جمهرة العلماء والرافض لاي شذوذ عليه . انه رعب التغيير والرغبة في « سعادة التوافق » وفي انسجام المجتمع الكامل بفضه مع بعض دون اي نمف نشاز والا كان الثمن باهظا ... الانتماء ، بلغ صورته النموذجية المرعبة في تلك العصور للدرجة التي لم يعد فيها اي عالم سوى نسخة ثانية من الاخر ... وكما ربطت القيم الاجتماعية « بالتابو » الديني ربطت كذلك قيم الفكر في كابوس واحد من الضغط الجماعي . ومن شأن هذا النوع من المناخ المغلق ان يخلق كل البراعم ضمن ما يمكن ان نسميه « الذات العليا الجماعية *Superego collectif* المشبعة بكل مخطورات التابو » .

ولسنا هنا في صدد البحث عن العوامل والعلل التي ادت بالموقف الفكري الى هذا الخور والانحلال ، وهي عوامل قد تتصل بمناخ اقتصادية وسياسية معقدة شتى وقد نجد لها مبررات دينية ونفسية دفاعية ، ولكننا نكتفي بالجانب الوصفي لها كواقف حياتي وكظواهر في هذا الواقع . ونضيف ان اما اخرى في مراحل حضارية مماثلة عرفت هذا النوع من الارهاب الفكري الجماعي (وما غاليله واصحابه بالامثلة البعيدة) ولكن التفتيح الحضاري انما كان رهنا بالتمرد على ذلك الارهاب ، بالرفض المتكرر والمتزايد له وهو ما لم يحدث في العصور العربية الاسلامية المتأخرة وقد حدث بالضغط عكسه اذ ازداد الضغط احكاما وتسلطا بتحول العلم في العصرين المملوكي والعثماني الى مؤسسة حكومية وموارد خبز ورزق ، يبيعه اصحابه من حكام (مماليك . سلاطين . باشوات . افوات قواد عسكريين . اسر اقطاعية ومالية) كلهم جديد الدخول على الحضارة العربية الاسلامية . عنيف العرص على بناء السلطة في يده اطول فترة ممكنة ، شديد الفيرة على مصالحه واستغلالاته للشعب وعلى زيادتها باستمرار ... ونستطيع ان نقول دون ان نقصد من ذلك معنى الاهانة اطلاقا ان العلماء تركوا دور الريادة والخلق الفكري تماما لياخذوا دور كلاب الحراسة لدى الطبقات الحاكمة .

ثانيا : واما ادوات الفكر : فقد اعانت بدورها على مسيرة الانغلاق الفكري وعلى التفرم ، وكانت بدورها ايضا في جدلية الحياة السبب والنتيجة مما في التخلف الفكري ، لا سيما مع نباتها الطويل وتمادي القرون عليها قرنا بعد قرن . ونقتصر هنا على ثلاث مشاكل منها : الامية والمدرسة واللغة .

فالامية ازدادت بدل ان تنقص في المجتمع العربي الاسلامي . حركة التعلم والتعليم لو انها استمرت في هذا المجتمع على الوتيرة التي بدأت بها في القرون الثلاثة الاولى من الحضارة الاسلامية لكان الارجح ان يختلف مصير المسيرة الفكرية كلها . صحيح ان المساجد كانت وظلت باستمرار مراكز التعليم والتحرير من الامية ، ولكن العلم نفسه اضحي بالتدرج نوعا من « الصنعة » ، نوعا من العمل . وكما يذهب الاجير الى تعلم الحرفة لدى معلمها ، وينشا الفلاح الصغير على محراث ابيه ليتابع الفلاحة بعده ، كذلك صار الذين يقصدون المسجد انما يقصدونه ليكون العلم صنعة لهم ومورد رزق . وكما ان الاسكاف او مثقف الاسلحة او البناء لم يكن يهتم بتعلم صنعة غيره ، كذلك لم يكن الحرفيون والفلاحون ليهتموا بتعلم صنعة « القراءة والكتابة » . ثم

الإبعاد التاريخية لازمة التطور

الحضاري العربي

تابع المشهور على الصفحة ٢٤

ولما كان التعليم نفسه في تلك المدارس محدودا بشرط الواقف من جهة وبحاجات السلطة من جهة أخرى وبالإيديولوجية الفكرية العامة من جهة ثالثة لذلك مشيت المدرسة « كمؤسسة » تعليمية الى الانحطاط والجمود بدل المسيرة نحو التوسع والازدهار . حتى المدارس التي كانت كثيرة العدد في العهد المملوكي تضاعفت اعدادها وماتت اوقافها واقرت من الطلبة وصارت في مطالع القرن العشرين خرائب مهمة القباب والشبابيك ... تابعة لمديريات الأثار .

وإذا كانت هذه قصة « التعليم العالي » في العصور السابقة فإن قصة التعليم البدائي كانت أشد قناما وظلمة . الإباء الذين كانوا يرجون لابنائهم بعض القراءة والكتابة كانوا يجدون « الكنايب » حيث يتكون المهاج من حفظ القرآن خاصة وتعلم بعض الكتابة وبعض الحساب (الهندي) ... « العصا » كانت هي السيد الأكبر في الكتاب ... هذا كله انما ينتهي في ما بين السابعة الى العاشرة من العمر ... حين ينتقل من « عصا » الشيخ (او الخواجه او الملا) الى عصا الحاكم ومن التلقين الأولي الى التلقين الإجتماعي - الفكري الأوسع ... ولا يشكل هذا التعليم بالطبع أي مادة من مواد الحياة الفكرية ...

وأخيرا تأتي اللفظة والتعبير : وإذا كانت اللفظة أداة الفكر بامتياز ولا تفكير إلا بالكلمات فقد عرفت اللفظة العربية بدورها عصر تصلب الشرايين والقوالب الجامدة بعد القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى . لم يكن انتشار السجع المتكلف سوى صورة لفساد الكلمة من المعنى والمحتوى ، وبالتالي تأكيدا لفرغ الفكر نفسه من الجديد . صاروا يهتمون بالاصداق بدل الاهتمام بالكائنات الحية في داخلها . ثم ان تلك الصور الجاهلية في الشعر والادب من تشبيهات بالسيف والقمر وانواع ادبية في الفخر والهجاء والفزل والتي امتدت على الحياة الأدبية في القرون الأولى استمرت هي نفسها بعد ذلك . اغرقت الادب في « اللفظية » المطلقة للدرجة التي اضحى مصطلح « عصور الانحطاط » لاصفا بستة او سبعة قرون على الأقل من الانتاج الأدبي الفتح ...

وهكذا فإن اللفظة ، كمستودع لتجارب الماضي اعانت الفكر على توطيد السلفية بقوالبها التي تجمدت كما اعانها الفكر المتجمد على استمرار بقائها قوالب جاهزة . وجاء التعبير الأدبي (من نشر وشعر) ففكرس هذا التجمد بالانفصال عن الواقع الحياتي للناس ومتابعة الشكل التعبيري القديم ذاته ... وهكذا حدث نوع من الانفصام ضمن الذات العربية ، ما بين الفكر واداته التعبيرية (اللذين اغتربا تمام الغربة عن العصر العاشي (وما بين الواقع الحياتي الذي يحياه الانسان العربي بالفعل ... وكما لم يعد الفكر منتبيا الى آلام الناس واحوالهم كانت اللفظة امرأ غريبا على الناس وكان الادب مجرد لعب في فراغ الالفاظ وعمليات تطريز وفسيفساء ... اما الكلمة فصارت نوعا من « السحر » لا تعني مدلولها ولكن مجرد ترنيمة سحرية . ليس هذا هو الذي يفسر يا ترى قفظة القوافي التقليدية في عشرات الالوف من القصائد الحديثة - القديمة ، ويفسر عدم رفض الجموع اليوم لتناقض كلام الحكام مع الواقع وايمان الناس بأن الكلمة يمكن ان تقوم مقام الفعل وتحل محله اشتقاقا من الايمان بمفعول « الآية » السحري ؟

وبعد هذا كله فقد اطل علينا القرن العشرون بمعادلة صعبة اشبه بتدوير المربع في المنطق الشكلي ... كان على العرب فيها ان يتخلوا مرة واحدة عن ايديولوجية فكرية تعتمد الى جانب ركائزها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، على اسس متناقضة كل التناقض مع معطيات الفكر الذي تعززه الحضارة الغربية وتفرضه ، بمختلف الوسائل والقوى ،

ان ذلك كان ضريا من الترف لا يحتاجونه ويكلفهم الوقت الطويل والمال الجزيل بالانقطاع والرحلة ، ولذلك احتكرته بالترجيح ايضا الطبقات اليسيرة . وإذا كان المتصم وهو ابن هارون الرشيد قد نشأ اميا لان اياه لم يكن ينتظر له ولاية الخلافة فلم يابه بتربيته ، فقد كان اخرى ان تكون الطبقات الشعبية على مثل ذلك الزهد في التعلم ولا سيما بعد ذلك العصر .. وهكذا يبدو ان الامية ازدادت انتشارا في العصور التالية كما يبدو ان انشاء « نظام » المدارس النظامية في القرن الخامس بجانب دوافعه السياسية والمذهبية كرد فعل على العناية الفاطمية الشعبية ، انما ظهر ايضا بسبب الحاجة الى المتعلمين ، ولهذا السبب انشئت « المدارس » المنفصلة عن المساجد وعين لها المدرسون ورسدت لها - وهذا هو الاهم - الاوقاف للاستانة والطلبة كذلك ... غير ان التكتات السياسية والعسكرية لم تهانن الحضارة العربية الاسلامية ابدا . وبعد اكتساح السلاجقة نم الصليبيين للشرق العربي جاء المفول ثم التتر . ودمرت القوى الايطالية (من نورمند وغيرهم) صقلية وافريقيا واستنفدت الحروب الطويلة المتصلة التي انتهت بخروج العرب من الاندلس ، كل قوى المغرب والاندلس . وكان طبيعيا في مثل هذه الاحوال ان تهتم الجماهير الشعبية بمطالب الحياة المباشرة ، بالخبز اليومي ... ليصبح « التعليم » ترفا ومطلبا ثانويا . وحين جاء العهد العثماني وضعفت السلطة السياسية جاء « المد » البدوي الذي اصاب الوطن العربي في مختلف الاماكن بالضربة القاضية . فصار الريف كله اميا ، وقطاعات واسعة من اهل المدن (ارباب الحرف والجدد والتجار العاديين والباعة) اميين امية كاملة ... حتى كان بعض الناس يحجون مع الحجيج ليرتفوا من كتابة الرسائل للناس وكانت الرسالة تصل الحي او القرية فيدور اهلها على القارئ الوحيد لديهم او في الجوار ليقرأها ... و « العلماء » انفسهم ، حين صار العلم حكرا لهم ومورد رزق في العهد العثماني صاروا يشجعون على ذلك الاحتكار ويعملون عليه . يروي « محمد كرد علي » انه حين بدأ يتعلم ، وهو من عائلة تجارية ، جاء العلماء الى ابيه ينهونه وينصحونه بالكف ، ويهدونه ... فلكل انسان « حرفته » الموروثة وفيه التعدي على الاخرين ؟ وهكذا تحولت الامية مع القرون والتفشي الى مؤسسة اجتماعية موحدة ما تزال واضحة العقابيل في الحياة العربية اليومية اليوم ، اغريب ان تكون احد الاسباب والنتائج في التخلف الفكري العربي .

ثم ان المدرسة ارتبطت بالسلطة : الذين كانوا يتخرجون من المدارس لا سيما بعد انتشارها منذ القرن الخامس ، كانوا لا يشكلون طبقة من « العلماء » ولكن من « الموظفين » .

المؤسسة التعليمية اصحت ذبلا من ذبول السلطة : تبدأ منها بالبناء والتعيين والاقواق (وكلها من صنع الطبقات الحاكمة والفنية) وتنتهي اليها : بالخدمات والخلع والتعيين لخطابة الجوامع والامامة والقضاء والافتاء والكتابة في النواوين لم تعد ذات وظيفة علمية ولكن وظيفة عملية هدفها تسيير امور المجتمع وتامين جانب الاعمال والاحكام الدينية فيه وجانب الشؤون الحياتية من كتابة عقود وسجل ضرائب ...

على العالم ... كما تصطنع وسيلة في التعبير مغرّبة كل الغربة عنهم من جهة وعن عصرهم نفسه من جهة أخرى بالإضافة الى ان كتلة العرب الكبرى كانت على الامية والجهل المعتق ... لا عنق النيذ ولكن عنق النيذ الفاسد الملوؤ بالذود !

ان البنية الفكرية للمجتمع العربي اليوم ، ان تفقدت كل التعفد، بعد خضوعها قرابة القرن الاخير او يزيد لصدمات الحضارة الحديثة والتفاعل معها واذا ازدوجت العلمية والفيسية فيها فنحن نجدهما يتمايشان معا في عقول الكثيرين . واذا اختلط معنى « العلم » التقليدي بمعنى ال Science الحديث للدرجة التي نسمي فيها بعض هيئاتنا العلمية الكبرى بالمجمع العلمي وهو ليس اكثر من مجمع لغوي ادبي فقهي نحوي ... واذا انسحب الراهب الفكري الجماعي على العصر وبقيت له بكل مكان اكثر من عصا غليظة وعشرات او مئات الجماعات والمراكز واذا اضحى العرب غرباء عن العصر بسبب حاجز « اللغة » المزدوج غربتهم عن لغتهم التي لا تمثل عصرهم عن اللغات الاجنبية التي تتكلمها الحضارة الغربية الحديثة ... اذا كان اولئك فلان المنطلقات التي تقوم عليها هذه الحضارة لم تجد بعد ركائزها في الذات العربية التي ما يزال تحت وطأة القرون السابقة . انها تحاول كسر قوالب الفيسية والتلقين والسكون امام مقاومة داخلية عنيفة تحتمي احيانا كثيرة وراء اسوار الدين كما تحاول فهم او اللحاق بايديولوجية الحركة والمنفعة والتحرر والبراغماتية والعمل التي يقوم عليها العصر الحاضر وبمعطياته في الاحساس بقيمة الانسان وبالزمن والالتزام بالتخطيط وبالعلم والتكنولوجيا وبالعدالة التوزيعية وبان العمل الانساني هو القيمة الاولى .

وبعد هذا فان هذا التاريخ القديم ما يزال برغمنا فينا : انه جزء

منا . ولقد يكون في جانب منه عنصر الاصاله في الذات العربية . ولكن هذا التراث الثقيل يضع العرب امام اشكالية مزدوجة : اشكالية الغربة عن التراث نفسه بحكم الانقطاع الطويل عنه والاكتفاء بالجانب السكوني منه دون الجوانب الديناميكية الاخرى واشكالية الغربة عن العصر الذي نقف امامه ، مع الامية و جهل الاسس الفكرية ، وقفة الابكم المبهور امام الالة العقدة ... وقد خلقت لنا هذه الاشكالية المزدوجة تحديا مزدوج الوجه ايضا : تكييف ذلك التكوين التاريخي الطويل تكييفا بنبؤيا داخليا من جهة ، واللحاق بالعصر من جهة اخرى ولكن بسرعة مثلية تعوض احداها عن التخلف والثانية عن الكتلة العربية الواسعة والثالثة عن السرعة المتزايدة لتقدم الحضارة نفسها ... لسنا مطالبين وليس بامكاننا - ولو حرصنا - ان نخرج من اهاب التاريخ اللصيق بالعظام ولكن المعادلة الصعبة هي توظيف هذا التاريخ كقوة دفع من خلال معطياته ذاتها . كسر حالة الحصار التي يعيشها الانسان العربي منذ عشرة قرون على الاقل وذلك بالفكر التاريخي اي بالآسة التاريخ نفسها وبمنطقه ذاته . نقل الانظار والفكر واللغة والعمل من الماضي الى القد ، من « الفردوس المفقود » الى « الفردوس الموعود » ولكن بالمعنى الجدلي الديالكتيكي لا الاستمراري وبالمعنى الذي يلتزم بالماضي والحاضر والمستقبل معا لانه يصنبر الانسان وحدة كاملة .

على ان التاريخ ، مع الاسف برغم انه المحور في معركة بناء الذات ليس كل مأساة الانسان العربي المعاصر . الابعاد الاخرى التي عليه ان يجاهدها لتجاوز ازمته الحضارية القائمة قد تكون اشد ضراوة . ولكن عليه ان يجاهدها كلها معا وعلى جميع المستويات . اهو الطلب الصعب ؟ ليكن ذلك ولكن عدم الاستجابة له يلقينا على المركب الاصعب : خسارة معركة البقاء .

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسون ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشئ الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لا يشبه الاخر شيئا كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته .

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة

صدر حديثا